أوسان العامري

وجـــه القمـــر

(رواية)

دار نشر
عنـــاوين
BOOKS
رؤية عصرية للنشر

www.anaweenbooks.org

anaweenbooks@gmail.com

يمنع طباعة أو تصـــوير هذه المطبـــوعة أو أجزاء منها، أو حفظها أو نسخها على الوسائط الإلكترونية من غير موافقة مسبقة من المؤلف.

العنوان: وجــه القمــر (رواية)

المؤلف: أوسان العامري

المقاس: ١٤ × ٢٠ سم

عدد الصفحات: ١٧٦ ص

الطبعة الأولى: ٢٠٢١

© حقوق الطبع محفوظة

عناوين Books

رقم الإيداع بالهيئة العامة للكتاب _ حضرموت: ٢٠٢١/٣٣٩

الإهداء

إلــى من أعاد إليّ قلمي بعد أن أضعته ســنوات.. وضعه بين أناملي ثم ابتسم وقال لي: لا مستحيل مع الإرادة..

إلى روحه الطيبة، فقد ترجل باكرًا.

للأستاذ الراحل: عبداللطيف مطيلس.

إلــى رفيقة حروفــي، والمنصتة لهمســي لغاليتي وشـقيقة روحي أختي: منية العامري.

شكرا

بكل حروف أبجديتي أشكر الأساتذة:
الغالية الأديبة: عبير عزاوي.
الأستاذ القدير: صقر المحمود.
الأستاذة القديرة: الزّهراء وزّيك.
بتعليماتكم وإرشادتكم تألقت حروفي.

الفصل الأول

(1)

صندوق خشبي

أمسك

بيديه المرتعشتين صحيفة، وجلس على كرسي فضي اللون بأحد مطاعم الحي، وأمامه ماسة فضية، وكأس الشاي بالحليب الذي اعتاد أن يشربه كل صباح.. شارف عمره على السبعين.. بلغ سمعه وهو جالس حديث شخصين بجواره.

ـ جاري أبو منصور، وجد اليوم في مزرعته لقيطة، وحين سمعت الخبر ركضت إليه أريدها. (قال أحدهما)

ـ هل أعطاك إياها فأنت وحيد دون أطفال؟ (سأله الآخر)

ـ للأسف رفض، رغم أنني عرضت عليه مبلغا كبيرا من المال، أردت شراءها لكنه رفض. لديه سبعة من الأبناء وبنتان.. لقد بكى حين عرضت عليه المال وقال لي: حين حملتها هدأت وسكنت إلي لعلها فتحٌ ورزقٌ.

تبسم صالح وهو يسمع حديثهما همس في نفسه:

ـ إي وَرَبّـي سـتكون خيـراً ورزقـاً وهديـة أهداهـا إليـه الرحمن.

تصفح جواله.. نظر إلى صورتها وبجوارها طفلتها ، فلمعت الدموع على أهدابه:

ـ ثريتـي.. اشـتقت إليـك واشـتقت إلـى جـوري صورتـك المصغـرة.. مرت سـنتان وألـم الفراق ينخر جسـدي، كبرت مـا عدت أقوى علـى البعد والفقد لقد صـار العيش صعبا في وطـن تداعت عليـه المحن، وتلبدت سـماؤه بغيـوم الفتن.. ما عدنـا نرى فيه شـمس الحقيقـة.. لا نطيق فراقـه لكن الفقر في الوطن غربة.

وقعت عينه على التاريخ:1/6/2019م

ـ في مثل هذا اليوم حملتها بين يدي وسكنت، بعد بكاء بح منه صوتها".

مـر شـريط ذكريات ثلاثين سـنة أمـام عينيـه الدامعتين كأنـه أمـس. فـي صبـاح 1/6/1990م أغلق نوافذ المسـجد وأطبق بابه وهو يتمتم بأذكار الصباح.. والفجر يبتسم وزقزقة العصافير ترحب بطلوع الشـفق.. صالح رجـل في الأربعينيات من عمره، يعلو أثر السجود جبهته وتخترق الشعيرات الفضية لحيته الكثة التي تكسو وجهه فتزيده وضاءة ووقارا ، فتبدو العمامة الملتفة حول رأسـه الصغيرة كأنها جبل شـامخ أمام

نكبات الزمان.

أحكم إغلاق الباب.. وبخطى وئيدة غادر عتبة المسجد، وما أن وَطِئَت نعله تراب الزقاق، حتى شنف مسامعه، لصوت بكاء بعيد، تسمر مكانه، أرسل سمعه يتبع الصوت ومصدره.. كان مصدر الصوت في آخر زاوية بين المسجد والشارع اقترب منه أسرع في خطواته.

لمح صندوقاً خشبياً بنيّ اللون، خطوط سوداء متعرجة تزينه من جانبيه، وقد تدلى منهما شال أبيض.. تسارعت نبضات قلبه وتصبب العرق من جبينه و تساقُطَ رذاذ المطر. نظر إلى الصندوق فلم تحمله قدماه، جثا على ركبتيه.. كان مولودا لم يمر على ولادته إلا سويعات.. كشف الغطاء عنه، فإذا هي طفلة، رفع رأسها إلى السماء.. مازال القمر في كبدها مبتسما كأنه نزل داخل ذلك الصندوق.. يغطي جبينها شعر أسود وشفتاها مشربتان بحمرة خفيفة وتلك العينان الكحيلتان اللتان تورمتا من شدة البكاء تحيط بهما رموش طويلة.. أجهش بالبكاء وتناثرت دموعه حملها بين يديه فهدأت همس إليها:

ـ من رماك هنا يا وجه القمر؟! خطيئة حبيبين أنتِ.. نظرة ثم عشق فموعد فلقاء.. على رصيف الضياع والحب المشبوه ينتحر العفاف!! هم يخطئون وأنتم تدفعون الثمن دهرا.

ضمها إلى صدره.. وحملها بكلتا يديه.. التفت يمنة ويسرة حتـى لا يـراه أحـد ، لا أحد في ذلك الشـارع، فـلا صوت ولا حركـة إلا قطـرات الندى تلقـي تحية الصباح علـى الأزهار.. وصرير أوراق الأشجار. أسرع في خطواته.. طرق الباب وفتحت زوجته.. فبادرها مبتسما :

ـ زينب انظري ماذا وجدت؟

حملقـت أم أحمـد إلـى داخـل الصنـدوق ورفعـت نظرهـا مشدوهة.. وأمطرها فكرها وابلاً من الأسئلة. أم أحمد امرأة ثلاثينية قصيرة القامة، بيضاء البشـرة، تلف شـعرها الأسود الكـث حول بعضه في منتصف رأسـها ، ثـم تزينه بطوق من القطـن المطرز بحبـات اللؤلؤ، ترتدي جلابية من القطن ذات ألـوان زهرية إلى منتصف سـاقها.. وما أن مـد إليها الصندوق حتى علت وجهها الدهشة والاستغراب!!

ـ طفل!؟ من أين جئت به؟ من أعطاك إياه؟

أمعنت النظر إليه.. فصاحت..

ـ طفلة !.. كأنها قمر..

وجلست إلى الأريكة..

ـ اسمعيني..

ـ واحفظي السر..

سـرد عليهـا صالـح القصة، فسـحّ سـيل من الدمـوع على خدّيهـا، وهي تضمها إلـى صدرها لتسـكت أنينها المتقطع الواهـن.. ومـا أن ألقمتهـا ثديها.. حتـى أقبلت عليـه الصغيرة بشراهة، لقد كانت تتضور جوعا.

نظرت إلى صالح والحيرة تملؤها:

ـ بماذا أجيب من يسألني عنها حينما يراها؟ محمد عمره سنة والكل يعرف أني لا أنجب بعد العملية التي أجريتها قبل سـنة.. ماذا سـأقول لهم؟ حتى ولديك عمر وأحمد فهما ليسـا صغيرين لكي نكذب عليهما.

ـ سـأقول إنهـا ابنة قريب لـي مات هو وزوجتـه في حادث وليس لها داخل المدينة أقارب، فكفلتها أنا..

اقتنعـت أم أحمد بكلام زوجهـا.. أخذت تنظر إليها والألم يعتصر قلبها، وسألت:

ـ ماذا لو كبرت و عرفت قصتها ماذا سنفعل حينها؟

ـ لا تزيدي همي أشعر أنني تحملت جبلا فوق رأسي.. أدعو الله أن يعيننا ونحسـن تربيتها ونحافظ عليها سـنكتم سرها فلا أحد يعرفه سوانا أنا وأنتِ.. ارضعيها فنصبح أسرتها..

احتضنتهـا أم أحمـد لدقائـق، فشـعرت بنبض يسـري من قلبهـا إلـى قلـب الطفلـة الـذي يرتفـع وينخفض بسـرعة.. ثم نهضـت المرأة بعد أن صحت من دهشـتها. أخذت الطفلة إلى

داخل المنزل نظفتها وألبستها بعض الثياب التي كانت معها..

ـ انظر كأنها نجمة...

ـ ماذا سنسميها؟

ـ ثريـا.. (قـال صالح) لترتفع وتسـمو ويكـون لها مكان عال إن شاء الله.

اسـتيقظ عمـر وأحمد على صـوت بكائهـا.. ركضا إلى غرفة أمهما نظر إليهما أبوهما..

ـ تعالا يا أولاد..

وقفا والدهشة تملؤهما...

ـ هذه ثريا أختكما الصغرى أحباها وصوناها وكونا لها سندا تتكئ عليه.. (قال صالح)

قص عليهما قصتها وما آلت إليه بعد وفاة والديها بحادث.. أقبلا يقبلانها..

ـ ما أجملها يا أمي.. (قال أحمد)

وعلى أصواتهم استيقظ محمد ، هزه عمر..

ـ انظر يا محمد إنها صغيرة وهي أجمل منك سألعب معها منذ اليوم..

حك محمد عينيه بكلتا يديه ، وحين رأى أمه تحمل الطفلة بكى وعلا صراخه.. فضحكوا جميعاً.

(2)

غيمة

بدأت

الحركة في الحي، حين أوشكت الشمس على الشروق، أصوات المارة، ورائحة الخبز من مخبز أبي جميل الذي يتسابق أصحاب الحي لشرائه لرائحته التي لا تقاوم.. وألوان الخضار الجذابة كأنها قوس قزح يرتسم أمام دكان أبي محمد وهو يحمل قماشة بين يديه يمسح بها الخضار فتبرق ألوانها..

الخط الرئيسي الذي يربط عدن بتعز، يعج بالسيارات وشاحنات النقل، فقد تحققت الوحدة وأصبح التنقل بين المناطق الشمالية والجنوبية سهلا ومتاحا. وعلى يساره يمتد شارع مستقيم تصطف فيه مبان مكونة من عدة طوابق، ومن خلفها مبان عشوائية ومن أمامه أراض ما زالت خاوية على عروشها. وعلى يمين الخط يمتد حي البساتين، بمزارعه الواسعة ورائحة الليمون وأشجار الجوافة التي تفوح من جنباتها.. تتخللها بيوت مبنية من الطين، تلك الأراضي ذات

تربـة خصبـة إلا أن الزحـف العمراني قلص مسـاحة الأراضي الزراعية بشكل يثير الحزن والحنق.

يفتـح صالح باب بيته، ذلك الباب الـذي أكل عليه الدهر وشرب، يغلقه بكل قوة فقد أصابه الصدأ.. منزل صالح يطل علـى الحي من الجهة الشـمالية، وتكاد تلـك المباني العالية تحجب عنه أشـعة الشمس لولا بضعة خيوط تتسلل بين الفينة والأخـرى فتمنح المنـزل اللائذ بها بعض الـدفء والنور.. فتح صالـح بقالته، وبدأ صباحـه كعادته كل يـوم.. يتفقد زوايا البقالة، والسـلع الموجـودة فيها وتلك الرفـوف المليئة بأنواع "العصائـر والبقوليات والألبـان والأجبان، وألعـاب الأطفال، والحلويات بكل أنواعها". كان ذلك اليوم مميزاً بالنسبة له.. شعور يختلج روحه مختلط بين فرح وحزن.. خوف وقلق.. يتمنى لو يستطيع أن يخفي تلك الطفلة "ثريا" في حنايا عينيه دون أن يراهـا أحـد دون أن يكـذب لكي يحفظها ويحافـظ عليها.. يزاول عمله قبل الشـروق ولا ينتهي إلا بعد الغروب يغلق بقالته فقط للصلاة والذهاب للغداء.. لا يملك شيئاً سوى تلك البقالة التي يعيل بها أولاده ولقمة العيش التي يسـد بها رمقهم. صالح رجـل طيـب القلـب، يسـتدين أغلب الجيـران منه مـا يريدون ويسـددون بعـد ذلك، نهاية كل شـهر.. البعض يماطل لكنه لا يؤنـب أحـداً ولا يطالبه.. ويسـاعده ابنه أحمـد في المحل،

بـل هـو من يعتمد عليه في الحسـاب، والبيع والشـراء.. كان ماهرا في ذلك على الرغم أنه لم يتجاوز الخامسـة عشـرة من عمـره.. أما أخـوه عمر فلا يحب البقالة؛ لأنه شـغوف بالقراءة وكتابـة الأشـعار والخواطـر على الرغم من صغر سـنه، فهو لـم يتجاوز الرابعة عشـرة.. يشـجعه والده، ويطمـح أن يصبح يومـاً ما شـاعراً له مكانته.. مرّ أسـبوع على تواجـد ثريا في بيت صالح.. شـيءٌ ما تغير في ذلك البيت كأن الدفء والنور يلازمه، كأن نجمة من السـماء نزلت وسـكنت ذلك المنزل وبثت فيه السعادة والفرح.. فقد كانت أم أحمد تلازم فراشها بين الفينة والأخرى لمرض يأتيها فجأة، تلازم فراشـها يومين أو ثلاثـة وقـد عرضهـا زوجها على كثير مـن الأطباء.. همس إليه أحدهم:

ـ زوجتك تعاني من بداية حالة نفسية صعبة.

لكنـه رفـض أن يعطيهـا أدويـة، وحـاول أن يعـوض ذلك بالمداومة على الرقية الشرعية . في ذلك الأسبوع كان الأمر مختلفـاً.. لـم تمرض أم أحمـد، ولم تنتبها الأعراض النفسـية السـابقة، لـم يصـدق صالح مـا يحدث، فقد نسـيت نفسـها مـع ثريا حتى ملامـح وجهها تغيـرت وتلك الابتسـامة الحنونة ارتسـمت على ثغرها من جديد.. بعد مرور أشـهر لاحظ صالح أنّ المـواد الغذائية والسـلع قد تم بيعها بالكامل خلال شـهر

فقـط وهي المرة الأولـى التي يحدث فيها هـذا.. أصبح يزوره زبائـن لا يعرفهـم ويشـترون منـه، ولازمـت الفرحـة أسـارير وجهه، وهو ينظر إلى ابنه أحمد وحركته ونشاطه في البقالة وسـعادته أن الحيـاة عـادت إلـى بقالتهم بعد أن شـبّ الحريق فيها قبل سـنتين.. بسبب تماس تيار كهربائي حدث في غفلة منهم.. تغير كل شـيء، البيت أصبح أوسـع، فقد رمم صالح منزله القديم الذي يتكون من أربع حجرات، وصالة واسـعة، وحوش أمام المنزل مفروش بالحصير. أضاف ألوانا زاهية إلى جـدران الحجرات كلها، واسـتبدل تلك الأبواب التي نخرتها الأرضـة، بأخـرى جديدة، وزيـن الصالة بلون زهـري جميل، بدت كزهـرة متفتحة والحجرات بتلاتهـا.. أما حوش المنزل فقد وضع على جانبيه أغراس من الزهور وفرش وسطه ببلاط ترابي اللون. البقالة توسعت وأصبحت متجراً كبيراً، يواظب صالح على إدارة دفته بمسـاعدة ابنه أحمد وبعض العمال. أما أم أحمد فقد تعافت تماما، ولم يزرها المرض منذ دخول ثريا منزلها..

قال صالح:

ـ أرأيـتِ ما وصلنا إليه، كأنهـا غمامة أمطرتنا بخيرها بإذن الله..

ـ أي والله، غمامة وأي غمامة..(ردت أم أحمد)

أقبلت ثريا :

ـ أبي..

ـ يا قلب أبيك ومهجته..

ركضت إليه فاحتضنها وأخذت تقبله.. ضحك.. ثم قال:

ـ ماذا تريدين يا نجمتي..

ـ معي واجبات أريد حلها مع هند.. هل أذهب إليها؟

ـ حسناً اذهبي لكن لا تتأخري.. ولا تصعدي الدرج..

تبسمت ثم قالت:

ـ حاضر يا أبي

ذهبت ثريا تتقافز كغزالة غضة ..

ـ أنا لم أأذن لها وأنت أذنت لها! أخاف عليها ، البنت كما ترى أصبحت نجمة مضيئة لم تعد صغيرة أخاف عليها من كل شيء.. (قالت أم أحمد)

ـ لا تخافي.. صديقتها هند مؤدبة وأبو فهد ليس له أولاد كبار سوى فهد يكبرها بعامين.. (تمتم صالح بينه وبين نفسه) وأنا كذلك أخاف عليها من نسمة هواء تحرك خصلات شعرها.. من يرميها بالورد سأرميه بالرصاص..

(3)

أول نظرة

طرقت

ثريا الباب.. فتحت لها هند ورحبت بها وجلستا في أرجوحة محاطة بمشاتل الورد ، ونافورة ماء أمامهما.. المنزل عبارة عن فيـلا جميلـة ، تزينها شـرفة دائرية محاطة بسـور عـالٍ تزينه قناديل، وتتوسطه بوابة كبيرة..

منزل هند جميل، وآسر لطالما حدثت ثريا أباها عنه وعن جماله فيطأطئ رأسه وهو يتمتم:

ـ الحمد لله على النعمة.

جلسـت ثريـا بجـوار هنـد تتضاحـكان وتحـلان بعـض واجباتهما ،وبعد أن أكملتا كل التمارين، شرعتا في اللعب.. رأت ثريـا فراشـتين ترفرفـان بجناحيهما ، وتراقصـان الورد ركضت نحوهما ، وبدأت هـي وهند تضحكان وتركضان في الحديقة انضم إليهما فهد فتعالت أصواتهم..

صرخت أم فهد :

ـ هند ما هذه الفوضى ألا تهدأون؟ لا تعبثوا بالحديقة.

لملمت ثريا دفاترها بسرعة وقد اغرورقت عيناها بالدموع، حبست عبرتها وركضت نحو الباب أمسكت بها هند:

ـ أمي لم تقصدك، هي هكذا حين نلعب أنا وفهد تصرخ إن أحدثنا ضجة.

ـ ثريا أرجوك ابقي معنا سنلعب بهدوء. (قال فهد)

أمسكت بالباب ففتح أبو فهد الباب.

ـ أهلاً ثريا.. قد كبرت وصرت فتاة جميلة ومهذبة.. كيف حالك يا ابنتي..

ـ شكرا يا عم.. الحمد لله بخير.

ـ هل ستذهبين؟ (قال أبو فهد)

قالت هند وهي تمسك بثريا:

ـ أبي ثريا خافت من أمي لقد صرخت فينا أن نتوقف عن اللعب والفوضى.

ـ تعالوا والعبوا واصرخوا مثلما شئتم، تعالي يا ثريا. (قال أبو فهد)

كانت أم فهد تطل عليهم من الشرفة وأمامها فنجان قهوتها، وبين يديها رواية تقرأها.. وضعت كل شيء على الطاولة.. ثم نزلت مسرعة حين رأت أبا فهد.

أم فهد مزمجرة:

أريد أن أتناول القهوة بهدوء.. سرقتم مني متعة تلك اللحظة..
لم أستمتع بقراءة روايتي.. أمسك أبو فهد بيدها وجذبها إليه

ـ تعالي يا حبيبة.

جلسا معا في الشرفة..

ـ يبدو أنك لم تكملي قهوتك.

ـ أحبها ساخنة لكنها بردت.

حدق بها وهي تلاعب خصلات شعرها وتمسك الكتاب بيدها الأخرى.. أخذ الكتاب وأغلقه، غضبت منه.

ـ نعم حسام، ماذا تريد؟

ـ أحبك حينما تغضبين تبدين أجمل.

ـ هاه.. لذلك تستفزني؟!

أبو فهد وهو يتأمل وجهها:

ـ لا أرى جمالك إلا حين تغضبين..

أتذكرين حينما مررتُ بسيارتي بجوار سيارتك؟ نظرت إليك وأنت تنزلين زجاج نافذة سيارتك.. لم أعِ حينها إلا على صراخك:

ـ ألا تنظر أمامك؟! نسيت نفسي حينها ولم أرَ شيئا إلا أنتِ.. ظننت أنني حاذيت سيارتك وإذا بي أكسر مرآة سيارتك الفاخرة..

ضحكت حبيبة ثم قالت:

ـ ذكرتني بالأيام الخوالي، وهل تلك اللحظات تنسى يا حسام!.. تذكرت كريتر وحي القطيع الذي ترعرعت فيه وشوارعه الجميلة.. وشارع العيدروس الذي التقيتك فيه. نعم أتذكر عندما نزلت تعتذر وتهدئني.. أنا كذلك غرقت في عينيك.. رأيت أمامي شاباً مفتول العضلات يرتدي ثيابا فاخرة جذاباً وسيماً.. ارتبكت حينها.. لكنني سرعان ما استعدت توازني، وزاد إعجابي بك حين قلت: سأوصلك بسيارتي إلى بيتك ثم أصلح سيارتك وآتيك بها.

ـ صحيح.. لكنك رفضت كم كنت عنيدة! قلتِ: سأصلحها بنفسي لا أحتاجك. تبعتك كنت خائفاً عليك لا أدري لماذا؟!

ـ وقفت أراقبك من بعيد وحينما خرجتِ من ورشة الصيانة، وتركت سيارتك هناك ووقفت على الرصيف تريدين سيارة أجرة.. أتيتك.. لم أخف من غضبك فقد غرقت في تلك العينان التي أخذت بتلابيبي وقوام رائع شغف به قلبي وذلك الشعر المتدلي على الكتفين، فلا أدري أيهما زاد الآخر جمالاً.. كأني أرى ظبية في الفلاة. كلما اقتربت منها نفرت مني. وحين أوقفت سيارتي.. زجرتني بعبارتك: ألا تفهم أنت مرة ثانية؟ نزلت ووقفت بجوارك قلت لك يومها: سأترك

سيارتي هنا وسأركب معك سيارة أجرة حتى أطمئن عليك ثم أعود إليها. حين شـعرتِ بجديتي قلتِ: حسـناً سأركب معك لكن بشـرط قلت لك: موافـق. ضحكتِ. فأبحرت في أمواج ضحكتك. قلت: موافق دون أن تسمع الشرط. قلت لكِ: المهم أن أوصلـك. قلت: أن توصلني إلى منتصف الطريق فقط. قلت لـك: موافق. ركبت وسـاد الصمـت.. إلا نبضات قلبي كانت تـدق بسـرعة.. أوقفتها حين قلت قـف.. فوقفت.. قلـت لك: لو تسـمحين هـذا رقمـي حينمـا تذهبيـن لسـيارتك اتصلـي بي لأكون هناك. غضبت ورميت به ومشـيت.. كطاووس ينشـر ريشـاته.. ظللت أنظر إليك وأراقبك حتى دخلت منزلك.. كان منزلاً فارهاً ومبنى عالياً.

ـ فـي تلك الليلة بات طيفك أمامـي أغمض عيني فأراك.. أسـمع صوتـك.. أتأمل ملامحك شـعرت بشـيء دب في قلبي. قلت: وهل هذا ما يسمونه الحب من أول نظرة. لم أصدق أنني سأجدك هناك عند ورشة الصيانة.

قاطعها أبو فهد ضاحكاً:

ـ منـذ الصباح الباكر رابطت هناك، لأنني سـألتهم متى يزاولون عملهم أجابوا قبل طلوع الشمس.

قالت حبيبة:

ـ ارتديت أجمل ما عندي.. كان ذلك اليوم مختلفا شعرت

أنني أرى كل شيء حولي جميلا ورائعا قبلت الأزهار.. ورقصت مع تغاريد الأطيار.. حتى أشعة الشمس التي تتسلل من خلف ستائر غرفتي الذهبية وأتذمر منها كل يوم.. كانت رؤيتي لها ذلك اليوم مختلفة.. وحين لمحت سيارتك خفق قلبي.. ومشيت نحوك..

ـ ففتحت باب السيارة وخرجت ووقفت انتظرك.. عيناي تتسعان أكثر وأكثر.. كأني أرى نجمة تتلألأ في كبد السماء.. لا أسمع إلا صوت كعبك العالي له صدى في مسامعي.. وذلك الفستان الأزرق الغامق الذي أغرقني، كالبحر في أمواجه.. كلما اقتربتِ شعرت أنني أغرق في يمكِ.. كمبتدئ لا يجيد السباحة يبحث عن شيء يتمسك به لينجو.. قلت: صباح الخير! كأنني أول مرة أسمعها لها حس مرهف و عزف شجي.. لم أرد عليك أحببت أن تعيديها لأستمتع بلحنها من بين شفتيك.. وتهت حينها في سحر عينيك.. فضحكتِ. ثم قلت: ألا ترد تحية الصباح.. قلت في نفسي: كيف أرد وصباحي صار بين يديك.. فأنتِ الصباح والصباح أنتِ.. ارتبكت ثم قلت: صباح الورد لأجمل ورد.. يومها التقت عيناي بعينيك وتعانقا طويلا.. ولاح من ذلك الثغر برقٌ اتبعته غيمة فأمطرت قلبي بعشقٍ للأبد.. تعرفين يا حبيبة: ما زلت عنيدة ومتكبرة كما كنتِ.. ما زلت كما أنت لم تتغيري..

لا تحبين الفوضى.. ترين الناس دونكِ.

غضبت حبيبة، فضحك أبو فهد فأعرضت بوجهها عنه.

ـ انظري ما أجملهـم كالعصافير في الحديقة لأصواتهم زقزقة. (أبو فهد وهو يمسك بيدها)

ـ حسام تعرفني لا أحب الفوضى.. تشتت أفكاري يكفي فهد وهند يأتي غرباء يلعبون معهم.

قطب أبو فهد حاجبيه. بدأت علامات الاستغراب تبدو على وجهه متسائلا:

ـ أي غرباء؟

ـ ثريـا.. لا أطيـق رؤيتهـا.. لا أحـب أن تلعـب مـع أولادي، سأمنع هند من مرافقتها.. أخاف على هند من صحبتها.

ـ ما هذا الكلام الذي أسمعه؟!

تغيرت ملامح وجهه وغضب...

ـ هند تحب ثريا.. وثريا فتاة مهذبة وهادئة وجميلة، أبوها رجـل صالح طيب القلب وقبل كل شـيء جارنا يا أم فهد، إن نظرتـك الدونية للنـاس ولمن حولـك تلازمك أينمـا تكونين وهـذه الصفة التـي أبغضها فيك.. تترفعين عـن الجميع وترين نفسـك الأكمل والأعلى، تواضعي يا حبيبة، يحبك الجميع.. التواضـع يرفعنـا في قلـوب الآخريـن، كيف نتكبـر ونحن

خلقنا من نطفة؟! كيف نتكبر ومصيرنا حفرة؟!

ـ أنا كما أنا لا أتغير.. تعجبني نفسي فقط. (ردت أم فهد مزمجرة)

ـ ياحبيبتيْ الطائر حينما يحلق بعيدا ويرتفع يصغر في عيون من ينظر إليه.. كذلك من يتكبر.. دعي ثريا وشأنها.. اغرسي في نفوس أولادك حب الآخرين، أخبريهم أن الرفعة في الأخلاق، والصفات الحميدة، والمكسب هو حب الآخرين لهم وقربهم منهم، ولا تغرسي فيهم احتقار الأخرين، علميهم أن في التواضع رفعة وعلوّاً.

(4)

قصاصات ورق

ـ ثريـا كـم مـرة يجـب أن أقول لـك.. أوراقـي، كتبي، دولابي، لا تقتربي منها.. (قال عمر)

ـ دخلـت غرفتـك، فكانت غارقـة في الفوضـى فرتبتها لـك، رتبت أوراقـك، وأقلامك وكتبك فـوق طاولتك. (قالت ثريا)

ـ قصاصات الأوراق أين ذهبت بها؟

ـ لم أجد أية قصاصات.. وجدت بعض الأوراق مرمية على الأرض، فرميتها في سلة المهملات. (ردت ثريا)

ـ أسـمعت يـا أمـي؟ (قال عمـر مغتاظا) أوراقـي رمت بها -ابنتك الوقورة- في سلة المهملات.

ـ اهـدأ يـا عمر، أنـت تتعبنـي، وتتعب أختك فـي ترتيب غرفتك. (قالت أم أحمد)

ـ لماذا حين ترتبينها أنت يا أمي، لا أفقد شـيئاً؟! وعندما ترتبها ثريا تضيع مني أوراقي وقصاصاتي؟

ـ أنـا لا أحـب الفوضـى أضـع كل شـيء فـي مكانـه. الكتـب في رفوف المكتبة، الأقلام فـي المقلمة، والأوراق على الطاولة بالقرب من المصباح، المزهرية وسط الطاولة...

ـ القصاصـات فـي سـلة المهملات(عمـر سـاخرا).. هذا مكانها صحيح!؟

ـ ابحـث عنهـا إن كانـت مهمـة وأخرجهـا.. (ردت بكل هدوء)

ـ أخرجيهـا أنـتِ؛ أنت من رميـتِ بها. (عمـر مزمجرا) ألا تعرفين ما بها؟

لمـاذا إذن رميتهـا إن كانت مهمـة؟ (ردت ثريا وهي تنظر إليه بنصف طرفها)

نفخ أوداجه وقطب عن جبينه، واقترب منها خطوة صارخا بأعلى صوته:

ـ قلت لك أخرجيها..

وإذا بصالـح ومعـه أحمد عائديـن من المتجر بعد العشـاء يفتـح باب البيت وهو يهتز صراخـاً.. وما أن لمحهما عمر حتى تسمّر مكانه وسكت وكأنه ابتلع لسانه.

ـ ما هذا الصراخ وهذه الضجة؟ (قال صالح)

ـ لا شيء.. تعرف عمر وعصبيته. (قالت أم أحمد)

نظـرت ثريا إلى أبيها ، ولمعت الدموع في أهدابها ثم جرت خطاها إلى غرفتها ، وأغلقت الباب..

ـ ماذا يجري هنا ؟ ما سر هذا الصراخ يا عمر؟

ـ ثريا يا أبي!

ـ ما بها؟

ـ قلـت لهـا ألـف مـرة لا ترتبـي غرفتـي لا تقتربـي مـن أوراقـي وكتبي لكنهـا لـم تفهم...لقد فقدت بعـض أوراقي وقصاصاتي.. واعترفت أنها رمت بها في سلة المهملات.

ـ لو أنك ترتب غرفتك بنفسك لما فقدت شيئا ، أنت تترك كل شيء كما هو.. ثم تغضب إن رتبت ثريا أو أمك غرفتك.

أمي لا ترمي بشيء؛ حينما ترتب غرفتي أجد كل أشيائي كما هي. (قال عمر)

ـ أنـا متعبـة لا أسـتطيع أن أرتـب كل شـيء، ثريا صبية وقوية وكل لمسة بيدها جميلة.

ـ أنتما تدللانها كثيراً ، صارت مغرورة بسبب دلالكما.

تقـدم صالح نحو عمر وجبينه ينضح عرقا ، وما كاد عمر يهز رأسـه حتى التقـط والده أذنه اليسـرى التقاطا انتفض له جسده متألما من شدة القرص. وقال له مؤنباً :

ـ تركـت لـك حرية اختيارك أن تمـارس هوايتك، وحبك

للشعر، والكتابة.. لم أضغط عليك لتكون مع أخيك في المتجر... أتيت بعمال دفعت إليهم الأجر من أجل أن تجد الوقت الكافي في دراستك وتنمي موهبتك. لم أتركك لكي تزعج أمك وتصرخ في وجه أختك، وتؤنبها تتعب من أجلك فلا تجد منك كلمة شكر وتقدير.. هذه آخر فرصة لك، ابقَ هادئا.. وإلا سأضطر أن أجعلك عاملا في المتجر، وتكون بجانب أخيك وتبدأ العمل معه.

عمر وهو يضع يده على يد أبيه التي يمسك بها أذنه:

ـ أعدك أنني لن أكررها؛ اطلق سراحي يا أبي، إنك تؤلمني..

أبعد صالح يده.. تحسس عمر أذنه، أطرق رأسه ، ثم ركض نحو غرفته وأغلق الباب.

ـ قسوت عليه يا صالح، دللته ثم ها أنت تتبع ذلك الدلال بقسوة منك..

ـ ليست قسوة؛ لكن هذه المواقف تحتاج حزما وشدة.. سأذهب وأرى ثريا.

طرق باب غرفتها ... ثم فتح.. كانت منكبة على وسادتها غطت نصفها بلحافها.. رفعت رأسها وهي تكفكف دموعها، تأملها.. همس بينه وبين نفسه:

ـ آه.. لو تعلمين ما تصنع تلك الدموع التي تكفكفينها

بأناملك من وجع في قلبي..

مد يديه إليها وأخذ يمسح أدمعها

ـ يا نجمتي الليل حزين لحزنكِ..

أين ابتسامتكِ التي تعزف لي ألحان الفرح؟؟ تبسمت...

ـ ظهـر القمـر، وشعشـع ضوؤه..ثريا لا تحملـي في قلبك شـيئا لأخيك ،هو يحبك؛ لكـن تعرفين عمر سـليط اللسان، وعصبي.

ـ ظننـت أنـه سـيعجبه ترتيبـي غرفتـه، زينـت طاولتـه بمزهرية، ووضعت فيها ثلاث وردات من ورود الجوري الحمراء التي يحبها.. مع ذلك غضب ولم يرَ شـيئا؛ إلا تلك الأوراق التي فقدها..

ـ هو يكتب على قصاصات، ثم ينقلها في مذكرته فإن ضاعت تلك القصاصات؛ ضاع جهده.

ـ لكـن يا أبي، لـم أتعمد أن أرميها وجدتهـا مرمية على أرضية غرفته فظننت أنه لا يريدها.

ـ حسـنا يـا ثريا، سـيرتب غرفته بنفسـه عقابـاً له، حتى يصبـح منظما ويبتعـد عن الفوضى.. هيا يـا ثريا، حضري مع والدتك العشاء إني أتضور جوعاً.

ـ من عيوني يا قمري.

ـ هيا أسرعي يا نجمتي.

قدمت وجبة العشاء رقاق من الخبز المدهون بالسمن يخبز في التنور مع أُدم من العدس، ذو اللون البرتقالي، الذي تجيد أم أحمد طبخه، وإبريق شاي أحمر مع النعناع.

ـ تعرفين يا ثريا، لا أعشق طبخا ولا أجد للطعام مذاقا؛ إلا الذي تجيد أم أحمد طبخه..

ـ وأنا يا أبي، ألا يعجبك طبخي؟

ـ لم تنفردي بالطبخ بعد حتى أميزه ما زلت أرى أنامل أم أحمد في طبخك..

ضحكت أم أحمد ثم قالت:

ـ تساعدني ثريا في إعداد الطعام هي شغوفة بأن تتعلم وستصبح ماهرة.

ـ لا يا أمي، لن أتعلم الطبخ بعد اليوم، مادام أبي يحب طبخكِ أنتِ..

ـ أحب الشاي بالحليب الذي تُعِدّه ثريا، كذلك البطاطا مع التمر الهندي.. هي ماهرة في ذلك.. (قال أحمد)

ـ حسنا سأطبخ فقط لإخوتي، أما أنت يا أبي، أدام الله لك حبيبتك..

قهقق صالح عالياً، وضحك الجميع.. انتبهت أم أحمد:

ـ عمر لم يأتِ..

نهضت ثريا:

ـ سأذهب لأعتذر له لكي يشاركنا العشاء

ـ اجلسي يا ثريا.. (قال صالح) هو الذي يجب أن يعتذر لك لا أنتِ، دعيه.. فلي حديث معه بعد العشاء.

(5)

الحلم الدفين

طرق صالح الباب...

ـ ادخل.. (قال عمر)

دخل صالح، وكان عمر جالسا فوق كرسيه منهمكا في الكتابة، أغلق صالح الباب خلفه، وأخذ بعض الأوراق يقلبها ثم جلس على السرير خلف عمر.. أدار عمر ظهره وجلس قبالة أبيه.

ـ هل شاركت بالمسابقة التي حدثتني عنها والتي نظمتها مدرستك؟ (قال صالح)

ـ نعم يا أبي. لقد نالت قصيدتي إعجاب الجميع، فقد كانت قصيدة عن حب الوطن، لقد شارك بعض الطلاب وكنت أفضلهم.. لم تظهر النتائج بعد لكن أتوقع أنني سأفوز.

ـ أتعرف يا عمر أنني أتوسم فيك حلمي الذي مات منذ سنين

ـ أي حلم يا أبي

ـ اسمع قصتي..

أرهف عمر سمعه، واستنفر جميع جوارحه نحو أبيه الذي بدأ يسرد عليه قصته منذ البداية..

ـ حينما كنت في عمرك كان الشـعر شـغلي الشـاغل، وشـغفي بـالأدب لا يوصـف.. أطلقـوا علـي شـاعر المدرسـة والشـاعر الصغير كنت فخوراً بتلـك الألقاب دون منازع.. في المسـابقات الأدبية كان اسـمي فـي الصـدارة.. كانت أمي وعمتك مريم تشجعاني وتقفان بجانبي دوماً.

ـ وجدي!

أطلـق زفـرة كالبـركان أيقظت ذلـك الحلـم الدفين في أعماقه وأمطرته من حممها أسى..

ـ جـدك يـا عمـر، كان لا يهتم بكل مـا حققت.. كلما أتيـت لـه بشـهادات التقديـر، والجوائـز التي كنـت أحصل عليها، يقاطعني مؤنباً: "لا تتشـغل بشـيء غيـر الحقل". أتعهّد الغرس وأرش المبيدات واسقي الزرع بالتقطير لا الغمر وأبعد الغـرس الذي أصابه المرض عن الغرس السـليم.. إلخ، فأعود إلـى أمي أجر خيبة الأمـل، والعبرة تخنقني: "لمـاذا يا أمي لا يفـرح بمـا أحققه؟ والكل فـي القرية يتمنـى أن أكون ابنه". كانت أمي تخفف عني بعض ما أجد، وأختي مريم تبعث في روحـي السـرور، فتفاخر بي صديقاتهـا، فيتحدثن عني وعن

قصائـدي.. في ليلة بـاردة مقمرة تجمـع أصدقائي وكان في ضيافتهم شـاعر مرموق من شـعراء القرية سكن المدينة ، و لطالما تمنيت أن ألتقي به.. استأذنت والدي وبعد عدة محاولات من أمي وافق بشرط؛ ألا أتأخر لأن في الصباح لدينا عمل في الحقل.. ذهبت والفرحة تسبقني.. ألقيت بعض قصائدي فأثنى عليها الشـاعر ومدحني. مر الوقت سـريعا ولم أشـعر به حتى بـدأ القمـر ينحدر نحو المغيب، قفزت من مكاني مسـرعا ، والخـوف يملأ جوانحي، وحين وجدت أبي عند الباب ارتعدت فرائصـي.. أنبني كثيراً ، وتوعد ألا يسـمح لـي بالذهاب مرة أخرى. تخرجت، شـعرت أنني أقترب من حلمي، سأذهب إلى المدينة ، ثم سـألتحق بالجامعة وسـأتخصص في قسم الأدب سـأحلق فـي سـماء حلمي فقـد أصبحـت قريبة منـي وأكاد ألامسـها. بدأت السنة الدراسـية وذهب أصدقائي إلى المدينة بعضهـم زاول العمـل هنـاك والبعض ألتحـق بالجامعة. حدثت أمي عن رغبتي صمتت.. فأفزعني صمتها ، وهي التي أسـتمد منها قوتي، رأيت في عينيها حزنا وأسى، فأدركت أن حلمي أصبح كسـير الجناح قالت: "اسمع يا صالح تعرف تعلق أبيك بك وحبه للحقل، وهو ينتظر سـنوات تخرجك لكي تسـاعده في الحراثة والعناية بالحقل". قاطعتها : "وحلمي، ومسـتقبلي! هل سـأدفنه هنا في الحقل؟". "يا بني حدثت أباك عن رغبتك؛ لكنه نهرني بقوة وزجرني". خرجت أركض بعيدا عن منزلي

بعيدا عن الحقل بعيدا عن القرية.. صعدت أعلى جبلٍ في القرية لم أتذكر أنني طلعته من قبل.. بكيت ذلك اليوم بحرقة...حتى شـاركني الجبل البكاء، رأيت الشمس تودع القرية فأيقنت أننـي أودع حلمي من قمة ذلك الجبـل.. عند الغروب عدت إلى المنـزل ونمت باكـراً.. حاولت أمي، ومريـم إقناع أبي لكن دون جدوى. كانت مريـم حينما تراني تبكي.. أصابتني نوبة مـن الصمت، صرت لا أتحدث إلى أحد كل وقتي في الحقل كما كان يريد والدي الحقل الذي كنت أعشـقه، وأكتب قصائـدي على ضفافه، كنـت أتغنى بثمـاره بجماله بزقزقة العصافير على أغصان أشجاره. أقبل قطرات الندى على أوراق أشـجاره، وتلهمني أشـعة الشـمس عند الغروب، وأنا أتمشى على جوانبه أروع القصائد.. إلا ذلك الصباح شعرت أنني دفنت حلمي في تربته كنت واثقا أنه لا ينبت أبدا مثل غرسـه الذي أعتنـي بـه، فحلمي مات فـي تربة الحقل الخصبـة.. بعد موت جـدك تحملت كل شـيء، أمي ومريم والحقـل ومازال حلمي دفيـن أعماقي.. مريـم كانت تتعب معي كثيـراً في الحقل، وتساعدني، كانت أختا وصديقة.. كانت علاقتي بها أكبر من علاقة أخ بأخته، فأنا من تبوح له بكل شيء؛ كنت قريبا منهـا جداً، لم أتذكر أنني أغضبتها يوما أو غضبت منها. لم يـدم حبنـا طويلاً. مرضـت مريم مرضا عضـالا.. وبعت نصف الحقل لعلاجها، طفت بها كل مستشفيات عدن، ورقدت في

مستشـفى عمر المختار (الصداقة) لكنها في كل يوم تزداد سـوءاً. اشـتريت بيتا في مدينة المنصورة، وأخذت أمي لكي نكـون قريبيـن من المشـفى الذي ترقـد فيه.. في تلـك الليلة وأنـا بجوارها كانت فاقـدة الوعي، كنت قريبا منها أهمس إليها: "متى سـتفيقين يا شقيقة القلب، هدني مرضك، غابت ابتسامتي؛ حين غيبك المرض عني". سقطت من عيني دمعة، وقعـت علـى كفها فحركـت كفها نحو كفي وأمسـكت بـي كانـت هـي المرة الأولـى التـي تتحـرك فيها منـذ عام.. أمسـكت يدها سـمعت صوت النبض يصيح.. ورأيت الأطباء يركضون نحوي.. لم أدرك حينها ما معنى ذلك الصوت؟ لماذا يركضـون حينما سـمعوه؟؟ أخرجني أحدهـم، وأغلق الباب. انقبض قلبي واختنقت.. لا أدري ما يحدث؟ خرج أحدهم وقال: "هل تقرب لك مريم؟" قلت: "نعم؛ أختي؟ هل ماتت؟". قلتها وأنا أرتجف.. صمت.. أمسكته بعنقه وهززته: "ماتت؟!" قال: "نعم وانصرف".. ملأ صراخي، وصراخ أمي المشفى. أظلمت الدنيا فـي وجهـي فقد مريم، يعنـي أنني فقدت نصـف قلبي. بعدها لازمـت جدتـك الفـراش، وبقيت فـي المدينـة، كانت أمك تعتنـي بها وتقوم على شـأنها.. عام واحـد ولحقت أمي بمريم.. فقـدت كل شـيء حلمـي وعائلتـي بعت مـا تبقى مـن الحقل واشـتريت منزلا في حارة البسـاتين بجوار الشـارع الرئيسي.. وانتقلنـا إليه أنـا، وأمك وأحمد كانت أمـك حاملاً بك.. بعد

أن بعت المنزل، لم أستطع العيش فيه، فصورة أمي تلاحقني فـي كل زواياه. فتحت البقالـة.. بدأت حياتي في المدينة وفي هـذا الحي الذي أعـرف كل زاوية فيه، وفي المسـجد الذي أجد راحتي فيه.

كان عمر ينصت إلى أبيه بكل شـغف.. يحدق إليه، وقد اتسعت عيناه عند كل كلمة يسمعها مندهشا مما سمع.. من حكايـة مترامية الأطـراف. أردف عمر وهو يضع كفيه على خديه:

ـ أكُلّ هذا الحزن، والفقد والألم تحمله يا أبي؟!

نهض صالح وضرب على منكبي عمر ثم قال:

ـ ألم أقل لك أنّي أتوسم فيك حلمي..

ـ سـأبذل قصار جهـدي لتحقيق حلمي الذي هو حلمك ما دمت تقف بجانبي وتسـاندني.. سـامحني يا أبـي، أعتذر عما بدر مني تجاه ثريا.

ـ ثريـا ضعها في حنايـا عينيك.. أتعرف كنـت أظن أنني أتعس إنسان وأن الذي مر بي لم يمر بأحد.. لكن حينما دخلت ثريا حياتي خجلت من نفسـي، وأدركت أنني جاحد النعمة.. ثريا كوردةٍ في الصحراء لا يصدق من رآها هناك كيف لها أن تنبـت ومن الـذي اعتنى بها بين تلك الرمـال القاحلة.. كن عضدها الذي يشـد سـاعدها.. كن لها النور الذي تهتدي بها

فـي ظلمتها ، إن الأخ في قلب أخته بمكان. حتى وإن صار لها زوج، وأبناء يظل أخوها بناءها الشـامخ الذي تعتز به.. صحيح قـد تقول: "هي ليسـت أختي من أمي وأبـي" لكنها أختك من الرضاعـة لجأت إليـك فاحمِها وأرجو أن يمـد الله في عمري حتى أسلمها رجلا يضعها في شغاف قلبه.

ـ أطال الله عمرك، وجعلك ذخرا لنا.. سأحميها يأبي، لن أخيب ظنك بي .

ـ بارك الله فيك! حقق الله مناك، وما تصبو إليه!

الفصل الثاني

(1)

حب من طرف واحد

المشاعر

الخجولة التي تختبئ في أعماقنا نداريها؛ فالبوح بها مؤلم، وكتمانها أشد ألماً. توطدت صداقة هند بثريا.. فكانتا تذهبان إلى كلية العلوم الطبية في خور مكسر معاً وتعودان معاً، هند تدرس بقسم الصيدلة بنفقة خاصة لأنها لم تنجح في السنة التحضيرية، بينما ثريا تدرس في قسم التمريض، بعد أن اجتازت الامتحان والسنة التحضيرية بتفوق.. كان حلمها منذ الصغر أن تصبح ممرضة مميزة، فتفوقت في دراستها، إلا أنها لم تكن تختلط بمن حولها كثيراً، فلا تكاد توجد لها صديقات مقربات، هن فقط بعض زميلات يتقربن منها من أجل أن تشرح لهن بعض المفاهيم التي تصعب عليهن.. فهي لا تبخل على أحد من أصدقائها يطلب منها مساعدة.. تخرج من قاعة المحاضرات وتذهب لملاقاة هند فتجدها في حديقة الجامعة وإن تأخرت تذهب لتراها في قاعتها..

هند ومجاهد معا في نفس التخصص، مجاهد طالب

متفـوق فهـو الأول علـى دفعتـه.. كان يحلم أن يصبـح طبيباً؛ اختار تخصص الطب العـام، فاجتاز امتحان القبول بجدارة، ودرس السنة التحضيرية بكل جد؛ السنة التحضيرية تشكل عتبـة الدخـول لكليات الطب بمختلف تخصصاته وهي سـنة صعبة في موادها والمشرفين المختصين يقومون بفرز الطلاب فيها بناء على اختبـارات مركزية دقيقة ومضنية للطالب فلا يجتازها إلا الطلبة المتفوقون لذلك تشكل عبئاً على الطلاب وذويهـم أيضـاً فالبعض من الطـلاب يتوفق فيهـا ، وينجح من كان لـه باع طويل فـي الاجتهاد.. والبعض يتابع دراسـته على نفقته الخاصة، وأما من لم يحالفه الحظ في اجتياز الامتحان فقد عاد يجر خيبة الأمل.. ومن هؤلاء الطلبة كان مجاهد.

أصابه اليأس والإحباط.. وهو يرى صديقه عامر في السـنة التحضيرية قد نجح. وعامر هذا كان يستعين بمجاهد ليساعده ويشـرح له ما صعـب عليه من مواد وما أكثرهـا.. بذل مجاهد جهـداً كبيرا في مسـاعدة عامـر، ولكن عامـر حقق المراد واجتاز السـنة التحضيرية وأكمل مسيرته بلا معاناة، ولا غرو فأبوه من أعضاء الهيئة التدريسية في الجامعة، و لأبنائه مقعد في الجامعة يضمن لهم التخصص الذي يرغبون به..

وقع مجاهد في يأس شديد بعد صدور النتائج.. توسل إليه والده أن لا يدع لليأس في حياته طريقاً، فاستجاب لوالده الذي

تحمل عبء تكاليف تدريسه راضياً سعيداً بولده المثابر.

مدينة خور مكسر تبعد عن دار سعد مسافة (15.8 كم) تستلزم 29 دقيقة للوصول إليها عبر الخط البحري، يوفر له والده مبلغا من المال كل شهر ينفقه في شراء الملازم المكثفة، والمواصلات الشاقة.

تطلب الأمر من مجاهد أن ينتظر عاما آخر.. ليتقدم إلى قسم الصيدلة.. فتفوق في الامتحان والسنة التحضرية.. وبدأ دراسة الصيدلة مجاهد شاب وسيم، طويل القامة، عريض المنكبين، حنطي البشرة، أدعج العينين، تغطيهما رموش طويلة، وحاجبان كقوسين، شعره أدعج طويل يصل إلى شحمتي أذنيه، يملك ابتسامة جذابة، ذو خلق وسمات ميزته عن الجميع ورفعته في قلوبهم.

كان مرجعاً لزملائه يكاد لا يجد وقتا يرتاح فيه، فالكل يلاحقه لمعلومة يريدها أو سؤال أو شرح لبعض المواد التي استعصت عليه.

تميز بذكاء فطري ونباهة عالية، أما هند، فكانت كغيرها من زميلات مجاهد يقضي معها بعض الوقت ويوضح لها ويشرح لها ما لم تستوعبه من المحاضرة، وهي تكن له من الود مالا يعلمه.. ذات مرة كان مجاهد منهمكاً يشرح لها وهي شاردة الذهن تتأمل ملامحه..

ـ تـرى.. هـل يدري أن قلبـي ينبض له؟ أن صوته يشـعرني بالـدفء.. حينما أكـون بقربه لا أرى أحـداً ولا أريد أحداً أن يقتـرب منه، ليته يدري أنني أحترق من الداخل عندما يقتربن منه.

ـ هند هل فهمتِ؟ (قال مجاهد)

ـ هاه.. نعم، فهمت.

هكـذا كان حالهـا يومـا بعـد يـوم، وحبـه يتغلغـل فـي أعماقهـا.. تعرف مجاهد على ثريا حينمـا كانت ترافق هنداً وتجلـس معها.. ثريا فتاة خجول ترتدي عبـاءة فضفاضة أنيقة وغطاء على رأسـها أسـود، تبدو من خلاله قمر بدا من وسط الظلام.. ليسـت منتقبة ترك لها والدهـا حرية ارتداء النقاب، لا تضـع علـى وجههـا أية مسـاحيق لتبدو أجمل، فهـي جميلة متفتحـة كـزهـرة نرجس يظهر عليها من ملابسـها البسـاطة. فهـي لم تبهرها تلك المظاهر في الجامعة رأت فيها أشـكالا وألوانـا.. فالجامعـة عالـم مفتـوح هكـذا كان بالنسـبة لها كانـت ملتحفة بالحياء.. لا تحـب المغامرة بأي علاقة مقربة. أما هند فيظهر عليها الترف في لباسـها، من رآها عرف أنها مـن طبقـة الأغنياء. في المـرة الأولى التي رآهـا مجاهد تقف بجوار هند سـأل هند عليها وعرف انها ابنة الشـيخ صالح فهو يعرفـه ويعرف إخوتها. عـرض عليها المسـاعدة فيما تحتاجه

من كتب.. لقد كانت تبحث عن كتاب تحتاجه في ترجمة بعض المصطلحات الطبية.. فقد حدثته هند عن ذلك.. كان مجاهد مهتما بالأمر.. بحث عن ذلك الكتاب وأحضره من بعض أصدقائه. فرحت ثريا حين أحضر لها مجاهد الكتاب، وشكرته وأثنت عليه.

لم تسعه الفرحة حينما رأى تلك الابتسامة التي ارتسمت على محياها كان شارداً يتأملها وهي تقلب أوراق الكتاب. همس في نفسه:

ـ لا أدري هل تقتبسين من جماله أم هو من يقتبس من جمالكِ.

هند وهي تحمل بيدها وردة حمراء:

ـ ثريا تعرفين أود أن أبوح بمشاعري له.

ردت ثريا مزمجرة:

ـ هل حصل لعقلكِ شيئا؟ لماذا لا تستمعين إلي، ستتعبين يا هند، هو لا يناسبكِ.. كما تعرفين هو بسيط ولا يصل إلى طبقتكم، أنت ابنة حسام من أغنياء المدينة..

رمت هند بالوردة ثم ردت:

ـ لماذا تغلقين كل باب أفتحه؟ ماذا أفعل، كل يوم يزداد تعلقي به. ازدادت تعلقا به، وزاد تعلقا بمن خطفت قلبه

من أول لقاء.

تغيبت هند بضعة أيام عن الجامعة.. تلك الأيام قربت مجاهد مـن ثريـا.. بـدأت ثريا تلاحظ اهتمامـه بها ، وقـرأت في عينيه الكثير من الكلام.. كالظل تراه أمامها وخلفها. شعرت ثريا بالحيـرة وأدركـت أنهـا بين أمريـن كلاهما أمر مـن الآخر.. بـدأت تبتعد عنه لا تتحدث إليه إلا قليلا. حينما يكون مجاهد مع هنـد لا تقترب منهما ، تتوارى بعيـدا عنهما.. لاحظ مجاهد صمتها الطويل وانزواءها. لم يعرف ما السبب؟ لم تغيرت؟ حين يراها يترك كل شيء من حوله ليتحدث إليها بأي شيء.. المهم أن يحدثها.. جلست هند بجوار مجاهد نظر إليها :

ـ هند أريد أن أحدثكِ حديثاً خاصا (قال مجاهد) لا أريد أحدا أن يعرفه.

تسارعت نبضات قلبها.. وارتجفت يداها.. وحدثت نفسها :

ـ أخيـراً جـاءت اللحظة التي انتظرتها.. سـيبوح لي بحبه.. سـيخبرني بشـعوره ومشـاعره.. يا سـعادتي أراني كطاؤوس نفش ريشة وتخايل في مشيته.

هند بعد برهة :

ـ نعم تحدث أسمعك.

تحدث مجاهد بكل صراحة وعبر عن تلك المشـاعر التي خبأهـا سـنوات قذفت حممهـا كبركان لم يسـتطع تحملها

أكثـر.. انصـرف مجاهـد وهند غارقـة بين ذلك البـوح الذي بعثرها.. تمالكت نفسها وودعته بابتسامة رضا..

ـ أبحث عنك وأنت هنا.(قالت ثريا)

نظـرت هند إليها وعيناها تذرفـان أدمعها ، وتلك الوجنتان احترقتا بحرارة دمعها.. تعض على شفتيها والعبرة تخنقها

ـ هند ما بكِ.. لمَ تبكين؟

لم تنبس هند بكلمة كلما نظرت لثريا انسكبت دموعها دون ان تشـعر نهضـت هنـد ، ومشـت من بيـن يـدي ثريا دون كلام.. أمسكتها ثريا بكلا منكبيها هزتها.

ـ هند ماذا حدث؟ هل تعرض لكِ أحد؟ أين كنتِ؟

ـ اتركينـي يا ثريـا.. دعيني في حالي دعينـي ألملم بقايا قلبي كسرتيني يا صديقتي، يا رفيقة دربي.

صعقت تلك العبارات ثريا لا تفهم شـيئا ، أخذتها دوامة من الغموض والحيرة..

أنا أكسـرك بماذا؟ أفهميني لا أدري عم تتحدثين!؟ (ثريا والدهشة تملؤها)

ـ تعرفين جيدا أنت تلعبين معي لعبة الغباء.

بحلقت ثريا بعينيها :

ـ أكاد أجن لم أفهم شيئا تتحدثين عني أنا...

ـ نعـم أنـتِ؛ تعرفين أنني أحبـه بجنون.. كنـت أظن أنكِ تتصحينني أن لا أبوح بمشاعري لأنكِ تحبينني وتحرصين على مشـاعري لـم أكن أتوقع أنكِ تحبينه، لمـاذا لم تحدثيني أنه يحبك وأنك تحبينه؟ لماذا أردت قتلي وحرق مشاعري؟

ـ من هذا الذي أحبه؟ هند أفصحي أرجوكِ!

ـ ومـن غير مجاهد.. تعرفين ماذا حـدث اليوم.. طلب مني أن نجلـس معا في مكان خاص أتدريـن، أين ذلك المكان؟ مكان خاص يتواجد فيه العشـاق والمقربون من بعض حلقت بعيدا.. وطرت كفراشة ملكية رفرفت بجناحيها حوله تأملته وأنـا متلهفة وعطشـى للبوح الذي انتظرته منذ سـنين فراشـة بسط لها يديه بكل رقة فرفرت ووقفت عليها ثم أغلق كفيه، كادت تمـوت بين أنامله فأطلقها بعد أن تركت جمال ألوان أجنحتهـا ملتصقة بكفيه.. أطلق سـراحها.. فطارت بجناحين سـوداوين.. اعتـرف بحب يداريـه ويخبئه لسـنين.. ذلك الحب ليـس لي نعم ليس لي.. إنه لكِ أنـتِ يا ثريا إنه يريدكِ أنتِ وأنا نقطة وصل بينكِ وبينه.

لـم تنصـدم ثريا من الذي يحدث لأنهـا كانت تتوقع ذلك.. رأت ذلك في أحداق عينيه.

ـ كنت أظن أنه سـيبوح به لي قريباً لم أتوقع أنه سيقتلك مرتين.

أمسكت بهند واحتضنتها:

ـ هند تأخر الوقت سنكمل الحديث في البيت.

زارت ثريا هند في بيتها وعند دخولها وجدت فهد عند باب غرفة هند، كان واقفا يتأملها وهي تطرق باب غرفة هند لمحته بطرفها فابتسمت، دخلت ثريا وأغلقت الباب.

جلس فهد في الصالة وأسند ظهره على الأريكة البيضاء وأمامه مزهرية مملوءة بباقة ورد جوري أبيض وأحمر اللون فأخذ منها وردة حمراء يداعبها تأمل الثريا المعلقة في الأعلى والأنوار تتلألأ منها والابتسامة تملأ وجهه تمتم:

ـ لاح برقٌ من ثغرها بشر قلبي بغيث منهمر

قتلتني بسهمها ليتها تدري أنني قتيلها

كانت هند في حالة يرثى لها نائمة على سريرها والدمع لم يجف من مقلتيها.. ستائر النافذة ذات اللون القرمزي تحجب ضوء الشمس ومصابيح الغرفة مطفأة.. طرقت ثريا الباب ثم دخلت، أزاحت الستائر عن النافذة فالوقت ما زال قبل الغروب جلست بالقرب منها، نهضت وهي تمسح دموعها.. وردة ذابلة.. سقطت بتلاتها..

ـ هند اسمعيني.. أعرف حبكِ لمجاهد وأعرف جيداً تلك النهاية كنت أظن أنني سبب لتلك النهاية لطالما حدثتكِ أن تبتعدي عنه لم أرَ تقربه إليكِ حبا وكنت أخاف عليكِ من

تعلقـكِ بـه.. صدقيني حتى وإن أحبكِ لـن ترضاه أمكِ يا هند.. تعرفيـن ذلك جيداً.. أنا أدركـت اهتمامه بي حاولت أن أبتعد عنـه لا أريـده أن يتعلـق بي فأنـا كل همي دراسـتي فقط، لا أريد شيئا يشغلني عنها.

ـ هـو ينتظر ردكِ فقد حملني رسـالته وأنا أوصلتها لا يهم ما أعانيه لا أريده أن يعرف بحبي له. سأكون قوية ومكابرة.

ـ أنا من سـأرد عليه بكل صراحة تمنيت أن يحبكِ مثلما أحببتِـه لكنـه تجاهل مشـاعرك هو يعـرف حبه لـكِ يا هند وتعلقـكُ به.. فقـد حدثني ذات مرة أنه يشـعر بذلـك الاهتمام لكن هو أصغر من أن يخطب بنت حسام.

ـ لـمَ أخفيـتِ عنـي ذلـك وتركتِنـي غارقة في وهمـي لِمَ تركتِني أغرق وطوق النجاة بين يديكِ؟

ـ تكلمت معكِ لكنكِ لم تفهميني..

بكـت هند حتى انقطع صوتها وبكـت معها ثريا مرضت هند ولزمت البيت عدة أيام، سـأل مجاهد ثريا عنها فأخبرته أنهـا مريضـة. أدرك مجاهـد مـا حـدث.. لكنـه لـم يتوقع أن تمـرض، وتصـل للحالـة التي وصلـت إليهـا.. رأت ثريـا حيرة مجاهـد واحتـارت أكثـر كيـف تبـدأ الحديـث معه كيف تحدثـه أنهـا لا تهواه؟ كيف تخبـره أن قلبها ليس معه؟ لقلبها نبـض لم يأتِ صاحبه بعد كيف تعلق قلبه بمن لا تبادله نفس

شـعوره وكسـر قلبا يتمنى قربه ووده.. أحضر بين يديه بعض المثلجـات والعصير الـذي تفضله ثريا ، طلبـت منه أن يجلس على أحد الرفوف تحت ظل الشجرة قدم لها العصير؛ فتبسمت وشكرته.. فبدأت حديثها :

ـ قـد لا نشـعر أننا للبعـض حياة من يهتم بـك فهو يريدك يريـد قربـك.. فإمـا أن تبتعـد ليفهـم أن قلبك لا يشـعر بذلك الاهتمام وإما أن تبادله اهتمامك.

ـ صحيـح.. البعـض لا يفهم مهمـا حاولـت، أن تبتعد عنه يظل يلاحقك حتى لو ابتعدت. (قال مجاهد)

ـ قـد يكـون وصل لمرحلـة التعلق فهو لا يـلام فقلبه من يلاحقك.

ـ نعم قلبه من يلاحقك.. أظنك قد عرفتِ كل شيء وهند قد أخبرتكِ.

ـ فعـلاً.. حدثتنـي.. اختر مـن يحبك سـيحفظك ويحافظ عليـك ربمـا من تحـب لن يبادلـك نفس مشـاعرك وهناك من تغلغل حبك في أعماقه قتلته باعترافك بحب غيره.

ـ كنـت أرنـو أن أظفر بمـن أحببت، لطالمـا داريت تلك المشـاعر التـي عصفت بـي اجتاحتني فجأة دون سـابق إنذار وها أنا أجد نفسي كسير الجناح.

ـ لِمَ نعلق قلوبنا بأشـخاص لم نعرف مشاعرهم تجاهنا لم

نحرق أنفسنا بأنفسنا.

ـ ليس بإرادتنا.

ـ إذاً لا نلوم من تعلق بنا ولا نلوم قلوبنا إن تعلقت بأحد.

حـب مـن طـرف واحد صنع فـي قلـب مجاهد وهنـد ندبة ملتهبـة لا تندمـل.. هو احتراق من طـرف واحد.. كان مجاهد قويـاً نوعـاً ما أو ربما يتظاهـر بالقوة فقد ظلـت علاقته بثريا أخويـة كمـا وعدها ، بعكس هند التي أثـر فيها ذلك الحب وأصبحـت قليلا ما تتحدث غابت ابتسـامتها المرحة ، لا ترفع طرفهـا فـي مكان يتواجد فيـه مجاهد.. لم تعـد تحتاجه في شيء تكن له كرها يصنع بينها وبينه آلاف الأمتار ، فالقلوب التي تحب بصدق إن كُسِرت لا تجبر.. تقسو ونادرا ما تخوض تجربة أخرى.

(2)

أسيل

ـ افتقدتك كثيراً، يا صديق الطفولة. (قال فريد)

ـ الله يا فريد قد نسيت ملامحك، الغربة سرقتك منا أين أنت؟ (قال فهد)

ـ في البيت.

ـ حقاً هل عدت إلى عدن؟

ـ نعم؛ قبل أسبوع.

ـ ما رأيك أن نلتقي؟ أمرُّ عليك ونذهب إلى ساحل صيرة، ونمرُّ بصهاريج عدن.. ونعيد الأيام الخوالي.

ـ حسناً.. موافق..

التقى فريد بفهد بعد سنوات من الفراق، تعانقا ونثرا ذكريات الطفولة على رمال الشاطئ.

ـ الله يا فهد لقد ازددت جمالاً ووسامة.

ـ وأنت يا فريد تغيرت لو لم تشر لي بيدك لم أعرفك أين فريد صاحب الجسم الضخم وتلك العضلات التي كان

يباهـي بها؛ والصـوت الجهـوري؟! وتلك الضحكة السـاخرة التـي يطلقها فيضحك لصداهـا الجميع؟! عينـاك مرهقتان.. ذابلتان.. تحتهما أقيمت مراسم عزاء..

صمـت فريـد.. ثم مشـى.. وقف أمـام البحـر.. وأمامه ذلك الصرح الشـامخ قلعة صيـرة التي تقع على الجزيـرة المعروفة باسـم صيرة شـرق مدينة كريتر. وهي جبل يحيط بها البحر مـن أربعة جوانـب، حيث يبلغ ارتفاعه 430قدماً فوق مسـتوى سـطح البحـر.. هـذا معلـم تاريخـي تعرف بـه مدينـة كريتر شكل في عمق فريد حالة من الشوق وأثار ذكرياته الهاجعة في عمق سحيق من قلبه موجعة كاوية.

أمـواج البحر هائجة وصوت هديرها يملأ السـاحل، كان فهـد ينظـر إليـه وأدرك أن صديقـه تلاطمت به أمـواج الحياة وهاجت به تماما مثل تلك الأمواج العاتية أمامه.

مشى فهد نحو فريد ووضع يده على كتفه:

ـ أتـدري حين هاتفتني ليلة البارحة، حلمت أنني أركض خلفـك وأنت تهرب مني.. لم أُلقِ لذلك الحلم بالا، ولكن الآن فقـط عرفـت معنـاه.. تعال وبح لـي يا صديقـي، فأنا كذلك غارق في بحر لا ساحل له.

جلس فريد وبجواره فهد يحدق به.. أطلق فريد زفرة فتحت بابا تدفق من خلفه بوح صامت:

ـ أتـدري يا فهـد معنى الغربة؟ ليس مغـادرة الوطن فقط.. ولا فـراق الأحبة.. الغربة أن تعيش بجسـد دون قلب، أن تموت كل أحاسيسـك ومشـاعرك وتصبح شـخصا لا يبالي بشـيء حتى ابتسـامتك.. تتلاشـى وتموت ببطء.. لا شيء يتغير فيك، سوى أنك على قيد الحياة.

مات أبي وترك لي خمس أخوات، أنا أكبرهم.. ترك لنا ما يسد رمقنا لم نكن نحتاج لأحد.. تركت دراستي وبحثت عن عمل هنا وهناك.. تعبت وأنا أبحث وزاد همي يوم أخبرتني أمي أن "أسـيل" قد تقدم إليها خاطب.. "أسـيل" التي نسجت خيوط حبهـا فـي قلبي.. لا أهنأ بنوم حتى أسـمع صـوت ضحكتها، كغيمـة تمطرنـي بالفرح كلمـا حزنت.. كزهرة الياسـمين تفوح عبقا يعانق شـغاف قلبي.. أسـيل.. ابنة خالي.. كل وقتها في بيتنا.. مع أخواتي.. فهمت بها وبادلتني الهيام صمتاً ولوعة.. لـم أتقدم لخطبتها أردت أن أتمكن من عمل وأسـتقر.. وحين سـمعت أن أحدهـم تقدم إليها ورفضـت.. تقدمت إلى خطبتها فقصـم خالـي ظهـري.. بمهرها، وطلـب مني مالـم يطلبه من الغريب.. كان خالي جشعا يحب المال فوافقت من أجلها..

مـا كان أمامـي إلا الاغتـراب.. فقد رأيـت الكثيرين قد تحسـنت حالتهم الاجتماعية بعد سـفرهم وهجرتهم.. وضعت الخاتم في إصبعها وهي تغالب دموع الفراق.. فقد عرفت أنني

فـي اليوم التالي مسـافر إلـى خارج الوطن.. مرت سـنتان على سـفري وفراقي لأسيل ولأهلي وأنا لم أستقر في عمل محدد.. ذقـت كـؤوس المعاناة كلها.. كلما جمعـت مبلغا من المال دفعتـه للكفالـة.. تزوجت أخواتي الأربع ولـم تبقَ إلا الصغرى فاطمـة، رفيقـة أسـيل التـي لا تفارقهـا وتشـاركها ألمهـا وانتظارهـا حيـن أتيه فـي دهاليـز الغربة أبكي، ثم أمسـك هاتفـي وأهاتـف أمـي وفاطمـة.. وأختـم المكالمـة على وقع صوتهـا، فأغلق الهاتف على رنة ضحكتها وضحكتي.. ترن في مسـامعي وتمدنـي ببعض القوة.. في ليلة من ليالي الشـتاء البـاردة، نمـت مبكـراً، ولكن عنـد منتصف الليل شـعرت بشـيء يكتم أنفاسي استيقظت غسلت وجهي.. دون فائدة ما زال ذلـك الشـعور يخنقنـي تذكرت أمي وأخواتـي ولعبت بي الهواجـس: "يـا اللّه لطفك".. هكذا نطقـت تلك الكلمة دون شعور، خرجت أمشي.. حتى سمعت صوت أذان الفجر ودخلت مسـجدا في الضاحية.. صليت، ثم عدت مرهقا ونمت. فتحت عيني ظننت أنني نمت ساعة أو ساعتين.. وما أن لمحت عقارب السـاعة أمامي حتـى انتفضت من مكاني، لقـد صار الوقت عصـرا.. أخـذت هاتفي أردت أن أهاتف أمـي.. مرة و مرتين لا أحـد يرد هي المـرة الأولى التي أهاتفهم فـلا يجيب أحد. زاد قلقـي.. حاولـت أكثر من عشـر مرات.. لم يتبـق على إجازتي سوى خمسة أيام. حاولت أن أقلصها فسمح لي صاحب المحل

بعـد تهديد ووعيد.. في اليـوم الثاني كانت رحلتي إلى الوطن بعـد عاميـن فقط أردتها مفاجأة لهـم وكان معي بعض المال لأدفعه مهراً لأسيل ويا ليتني لم أعد.. ليتني مت هناك.

فهد وقد بحلق بعينيه:

ـ ماذا حصل؟

فريد وهو يحبس عبرته، والدموع تلمع بين أهدابه:

ـ ماتت أسيل.

أجهش بالبكاء.. حضنه فهد ودموعه تنهمر.

ـ ماذا حدث؟

فريد وهو ينتحب:

ـ أنا السبب؛ أنا قتلتها.

فهد وهو يمسكه بيديه:

ـ فهمني.. لم أفهم شيئاً.

أردف فريد وهو يكفكف دموعه:

ـ قبـل أسـبوع مـن عودتـي تحـدث خالـي إلى أمـي أنه لا يسـتطيع أن ينتظـر أكثـر فإمـا أن يعجـل ابنك بالـزواج وإلا سأنهي كل شيء.

أسـيل باحـت لفاطمـة أن والدها سـيزوجها بأحـد التجار الكبار، فقد رآها حين زار والدها في بيتهم بدأ والدها يلمح

لها ، ويسب فريد الذي يتسكع دون عمل ولم يفعل شيئاً حتى الآن. ضغط عليها وأنهى كل شـيء وانتزع الخاتم من إصبعها وهي تبكي ورمى به إلى أمي وذهب.

مرضـت أسـيل وتركت مأكلهـا ومشـربها حتى كادت تهلـك وخالـي لـم يبـال بذلك، كانـت تتوسـل فاطمـة أن لا تحدثني عن شيء أبدا.

فكتمت فاطمة الخبر عني أسـبوعا وحين كنت أسـألها عن أسـيل، ترد أنها ذهبت إلى بيت خالتها.. الذي يبعد مسافة عـن بيتنـا وتعلل غيابهـا بـأن البيت بعيـد.. دخل عليهـا أبوها وفاطمة بجوارها.

ثم قال لها:

ـ غدا سيأتي أبو عبد الرحمن ليطلبك وقد وافقت..

لم تنبـس بكلمـة.. تركتها فاطمة وهي كطير كسـير الجنـاح، كلمـا حاول أن يطيـر وقع علـى الأرض. وفي الليلة التي اختنقت فيها كانت أسـيل تصارع الموت بعد أن شـربت كأسـا من السم.. اسـتيقظ الحي على صراخ أمها وأخواتها.. جلست على قبرها فتبلل ثرى القبر بدمعي ناديت أسيل ها أنا عـدت أين أنتِ؟ اشـتقت إليـكِ.. تذكرتها حيـن ودعتني وهي تمسح دموعها وضعت بين يدي مصحفا صغيرا قالت لي:

ـ حافظ عليه واقرأه سيحفظك الله به.

نظـرت إلى عينيها كانتا شـديدتي الاحمـرار منتفختان، وذلك السـواد الذي خيم تحت عينيها الناعسـتين، فأدركت أنها كانت تبكـي طوال الليل لم تنم لفقتها بذراعي وأحرقت دموعها صدري.

همست إليها:

ـ سـأعود لـن أغيـب طويلا من أجلـك يا وردتي، سـتهون غربتي.

على رصيف هذا الوطن تبعثرنا، تلاشـت تلك الأيادي التي ظنناها ستلملمنا، غرباء نحن في وطننا.. لعلنا نجد في الغربة وطنا.

حدقت بي ملياً، تشبثت بي ثم قالت:

ـ حافظ على نفسك فأنت لي الحياة ،لا أريد حياة دونك..

ليتها عاشت حياتها دوني كلما اشتقت إليها رأيتها. بجوار قبرهـا دفنـت قلبي يـا صديقـي.. احتفظت بكراسـة كانت تكتـب فيهـا ولي نصيـب من سـطورها.. وبقطعـة قماش لها كانت دائما تضعها على رأسـها حينما أكون في البيت عند أخواتـي وتكـون هي معنـا.. احتفظت بها فاطمـة في دولابها فأخذتهـا منها.. حاولت فاطمة أن تأخذها مني وأوهمتني أنها لها، لكن أسـيل كانت تضعها على رأسها دائما حينما رأت تعلقـي بهـا تركتها لي وهـي تبكي لما رأت مـن حالي.. أنام

وغطاؤها على وجهي وبين ذراعي، ما زالت رائحتها عالقة به.. أسمع صوتها وأفتح عيني وأراها مبتسمة.. تهمس إلي:

ـ لم تركتني..

فانتفض من مكاني وأصرخ بأعلى صوتي

ـ ها أنا عدت.. أين أنتِ؟

لـم يسـتطع فهـد أن يـرى فريد علـى ذاك الحـال.. تركه يبكـي.. وقـد أمال رأسـه إلـى ركبتيـه واحتضنـه بذراعيه لعـل البكاء يريحـه.. وتجرف أدمعه ذلك الحـزن الجاثم على أنفاسه.

(3)

عاشق حائر

جلس فهد على صخرة شـارد الذهن، وأمواج البحر ترتطم بالصخـر حولـه، و يهتـز قلبـه لهديرهـا كلما علا واشـتد، فينتبه من شـروده يتأمل تسابقها إلى تلك الصخور وارتطامها بها، إلا أنها صامدة تغفو على رمال الشاطئ.. أبحر بأفكاره بعيـداً.. تأمل النوارس التي تحلق وتصف أجنحتها.. فتغيب في كبد السماء ثم تعود وتغوص في البحر وتلتقم السمك فتخرج منتصـرة من تلـك المعركـة الضارية.. انتبه فهـد على صوت فريد يحدثه وقد تورمت عيناه:

ـ اعذرنـي يـا صديقي كـدرت خاطـرك. لم أبـح لأحد.. سـجنت ذلك البوح لأنـي كنت أدرك أنني سـأبكي ولا أريد أن يرى أحدٌ دموعي.

هكـذا تعلمنـا ، أن الرجال لا يبكون.. فالبكاء للنسـاء فقط، لكنهم أخطأوا في ذلك.. صحيح أن دموعهم شـحيحة لكنها تتسـاقط، كتسـاقط حبـات المطر مـن غيمة متعبة مثقلة بالمزن. تبسم فهد وهو يضع يده على كتف فريد:

ـ أنـت أخـي ، يكفـي أنك كتمت مـا بـك دون أن تبوح لـي بـه ، وخبأت عني همـك وحزنك.. أنا حزيـن أنني لم أكن بجانبك لأخفف عنك ما ألمَّ بك..

ـ لا عليـك يا أخي ، أنت الصديـق الوفي الذي مازال معي لم تغيره الحياة على الرغم من إنقطاعي عنك سـنيناً. شـعرت أنـي ألقيت كل ما بداخلي هنا ووجدت من يسـمعني. يكفي ما تحدثت به عن نفسـي حدثني عنك عن دراستك عن حياتك عن كل شيء.

ـ الحمد لله ، كما ترى أدرس في كلية الإدارة في مدينة الشـعب ، تخصصـت "إدارة أعمـال" والحمد لله تسـير الأمور على ما يرام وأطمح أن أكمل دراستي خارج الوطن.

فريد وقد غمزه بإحدى عينيه:

ـ وأخبار قلبك يا صديقي؟

تبسم فهد ابتسامة ذاوية وقال:

ـ قلـب صديقـك عميـق كهـذا البحر يخفي فـي أعماقه أسـرارا.. صديقـك كهـذه القلعـة الشـامخة الصامـدة أمـام السنين..

ـ بُح كلي أذان صاغية.

ـ لـكل منـا قصة يعيـش أحداثهـا ، هو بطلهـا ، وهو من

يرويها منذ البداية، لكن نهايتها حتمية ليس له أن يتحكم فيها وتظل تلك الحكاية مفتوحة القفلة.. قصتي أنني عاشق حائر.. أحببت فتاة سرق طيفها لذيذ نومي وسامرني السهد ترعرعت وكبرت في حنايا قلبي واتخذت من قلبي لها مسكنا

ـ لا أصدق.. فهد عاشق!؟

ـ صدق يا صديقي بل أسير الحب، وضعت قيوده في معصمي وقدمي.

ـ وهي هل تستحق قلب صديقي الرقيق؟

ـ إنها قمر يمشي على الأرض آية في الجمال، إن تحدثت فلحديثها همسٌ عذب، وإن تبسمت ففي ابتسامتها نهر حنان لا ينضب.. ناعسة الطرف.. غيداء.. هيفاء القوام.. حسناء مكتملة الأوصاف.

ـ لم أعرفك شاعرا.

ـ ليتني شاعر لأكتب فيها أجمل القصائد.

ـ فريد: هل تحبك؟

ـ فهد: هذا ما يؤرقني.. صامتة.. خجول.. أقرأ في عينيها البنيتين الواسعتين بوحاً صامتاً.. يجذبني من تلابيبي.. فأتيه في دهاليزه أسترق النظر إليها حين أكون أمامها.. كأني

شـهاب في مجرتهـا.. بين الفينـة والفينة ترميني بعيـدا عنها.. أينما كانت أكون بقربها.. أرقبها أينما ذهبت.. تشرق شمس يومـي حيـن أراها.. تـارة أراها شـاردة تتأملني وحيـن ألمحها تعرض بطرفها عني.

ـ أهي من أقاربك ؟؟

ـ لا هي ابنة جارنا.. رجل شهم وكريم.

ـ هل عائلتها غنية؟

ـ لا ليست من طبقة الأغنياء، هم من الطبقة المتوسطة.

ـ أتعـرف؟ البسـطاء قـد لا يملكـون المـال ليرفعهـم، لكـن يملكون العـزة والكرامة التي ترفعهـم عاليا، وأظن محبوبتك يا فهد من هؤلاء.. يدوسون أي شيء يمس كرامتهم وكبرياءهم.. حتى وإن كانت مشاعرهم.

ـ أتعنـي أن ثريا تـرى الفرق الذي بينـي وبينها من الناحية الاجتماعية؟

ـ أكيـد.. قـد تـرى أنها غير مناسـبة لـك ولعائلتك وأنت تعرف أن أباك حسام أكبر تجار المدينة.

ـ لكـن أنا لم أشـعر يوما أني أفضل منها بـل أتودد إليها وأتقرب منها..

ـ قد تكون خائفة من مشـاعرها.. فهناك نوع من النسـاء

لا تعترف بما تكنه من شعور بسهولة، لا سيما تلك التي ترى أن هناك فروقاً قد تعصف بذلك الحب.. وقد تنتظر أن يبادر الطرف الآخر بالاعتراف.. الاهتمام هو عبق الحب فلا حب بلا اهتمام.

ـ هي رفيقة أختي هند تزورها دائما تمكث معها تدرسان وتتبادلان الأسرار، علاقتها بهند قوية جداً.

ـ علاقتها بها تختلف عن علاقتها بك ، فأنت شيء آخر.

أردف فهد:

ـ أمي تلمح لي كثيراً إلى ابنة خالتي سهى.. وكلما زارتنا ثريا، تأتي سهى كذلك.. أسلم عليهما أحيانا، وأجلس معهما أحيانا أخرى، لكن سهى تتقرب مني وكأنها تلاحظ اهتمامي بثريا.. فيزعجني تصرفها فأنصرف.

ـ إذاً أنت تريدها أن تتقرب منك وأن تبدي حبها لك وأنت تعيش هذا الصراع!

ـ أكاد أجن.. لم أفهمها. على الرغم من جنوني بها إلا أن شيئا ما في أعماقي يهمس إلي أنها ليست لي.. أراها نجمة بعيدة المنال.. كلما تراءى لي أنني صرت قريبا منها، ابتعدت أكثر. ربما لها حكاية لم تكتمل.. فالكثير من الهواجس تعتريني ما مصدرها؟ لا أدري!

فريد وهو ينظر إليه مشدوها:

ـ حكاية؟ أية حكاية؟

فهد وهو يمسك رأسه بكلتا يديه:

ـ لا أدري؟ شعور يختلج أعماقي.. كلما أنصت له يحدثني أن تلـك الفتاة التي تعلق بها قلبي ليسـت لي.. أنا أجزم أنها لي وسأصنع المستحيل من أجلها .

ـ دعـك مـن هواجسـك، واتبـع قلبـك، هـي ليـلاك وأنت قيسها. (فريد وهو يضحك)

ـ في الفترة الأخيرة لاحظت أن أحدهم يتقرب منها.. عند عودتـي مـن الجامعة، ذهبـت لآخذ أختي هندا مـن كليتها، لكن لمحته وهو يمشـي إلى جانب ثريا ويتبادلان الحديث لم أرها تتحدث إلى أحد من قبل وهذا الذي أغاظني.

ـ من هو؟

ـ مجاهـد.. طالـب يدرس فـي الكلية ذاتهـا، أختي هند وهو في نفس التخصص.. متميز.. ذكي.. جذاب.. هو ابن العم جميل صاحب الخضار.

ـ ربما تحبه فالشاب مميز جداً.

فهد وقد اغتاظ:

ـ سأقتله..

ضحك فريد:

ـ هدئ من روعك .. أتغار عليها؟

ـ أغار عليها من كأس يقترب من شفتيها.. من قلمها التي تحتضنه أناملها..

ـ اللّه.. لقد تربعت الفتاة على عرش قلبك.. اسمعني! اذهب إليها واعترف لها بحبك.. صدقني سترتاح من هذا الصراع الذي تعيشه.. فإما أن تصدك وتريحك من الوهم الذي يعشعش في قلبك.. وإما أن تبادلك المشاعر.. وحينها تهديها النجوم.

فهد وهو يضع يده على كتف فريد :

ـ هي ثريا.. لا تحتاج إلى النجوم.

حسنا سأعمل بنصيحتك يا صديقي.. ضحكا معاً.. وبدأت الشمس تنحدر نحو المغيب.. تودع الساحل الذي هدأت أمواجه بعد مد وجزر.. ترسل أشعتها الذهبية.. لترسم لوحة الغروب الزاهية. تعانقا ثم وقفا يتأملان سحر تلك اللحظة.. ووعدا البحر والشمس والغروب.. أن يكون لهما لقاء قريب ليكملا حكايتيهما.

(4)

اعتراف

تلـك الابتسـامة التـي انبثقت مـن ثغرها كالنـور أضاءت أعماقـه المظلمـة ومهـدت له الطريـق ليبوح لها بحبـه.. وعلى الرغـم مـن أنـه حائـر بين شـك ويقيـن.. يـأس وأمـل.. إقدام وتراجـع.. لكن فهداً عزم على الاعتـراف لها بحبه.. قبل ذلك فكـر كثيـراً في كلام صديقه فريد وتـردد كثيرا أيضاً.. بسـبب الفارق الاجتماعي بينهما لكنه في النهاية اتخذ قراره بعد ليلة مضنية أمضاها سـاهراً يقلب الأمر على كل وجوهه ويحاول أن يتخيل رد فعلها عندما يصارحها بمشاعره..

في الصباح الباكر أزاح فهد السـتائر البنفسـجية لغرفته الستائر التي اختار لونها؛ لأنه المفضل عند ثريا رغم اعتراض والدتـه واتهامهـا له بـأن ذوقه ليـس راقياً.. لكنـه كان يرى الستائر وكأنها عالم الأحلام الذي يحلق فيه مع ثريا ويعيش فيه أحلى اللحظات.. فتح نافذته لم تكن الشمس قد أشرقت بعد ، لكنه اسـتيقظ باكراً هو لم ينم أصلاً سـوى لحيظات غلبه فيها النوم بسبب تعبه وأرقه وتفكيره المتواصل بما عزم

أن يقوم به صباحاً.. وقف أمام النافذة تتنفس هواء الفجر بعمق فعبق الورد يعانق الندى.. ونسائم الصباح تراقص الأغصان.. تقع غرفة فهد في الطابق العلوي من المنزل منفصلة عن باقي أجزاء البيت مما يتيح له عالماً من السحر والخصوصية ملأها بتفاصيل صغيرة تذكره بثريا كل ركن من غرفته تضيئه زهرة أو تزينه لوحة تحمل في ثناياها رمزاً لثريا.. صور مجرات وأقمار وشموس.. كانت غرفته تشبه قبة سماوية تضيئها ثرياه بكل ألقها وسحرها.. اعتاد كل يوم أن يستيقظ في هذا الوقت.. حين تفتح ثريا نافذتها في هذا الوقت نفسه كل صباح.. تطعم عصافيرها التي تنتظرها خلف النافذة منذ أن كانت صغيرة تضع الحبوب والماء على حافة النافذة والعصافير اعتادت على ذلك المكان فتحضر قبل شروق الشمس تزقزق خلف النافذة فيكون لها مع ثريا لقاء حميم إذ تبسط يديها لتطعمهم، لكن ثريا لم تدرك أن هناك عينين تنتظرانها كل صباح كما العصافير تراقبانها بشغف وتلهف وشوق.. وكذلك لم تدرك أنها كانت تعني لصاحب هاتين العينين تحية الصباح وشمس يومه.. طموحه وحلمه.. أمله ومناه وفضاء حياته.. لم تكن تعرف أنه يظل يحوم كصقر محلق في سمائها الصافية، لكنه يهابها ويخشى الاقتراب منها.. لكيلا تهرب منه كما تفعل العصافير حين تشعر بخطر ما.. وأي خطر يمكن أن يحمله قلبه؟! لا شيء سوى

هذا الحُب النقي ؟! هبت نسـمة هواء حركت سـتائر النافذة جفلـت العصافير وطـارت بعيداً فأغلقت ثريـا نافذتها بعد أن اطمئنـت إلـى أن العصافيـر تناولت فطورهـا.. وكذلك أغلق فهد نافذته بعد تواري ثرياه عن نافذتها.. نزل فهد من غرفته.. قبل رأس أمه.

ـ صباح الخير جنتي. (قال فهد)

ـ صباحك سعادة يا قرة عيني. (ردت أمه)

ـ ألن تذهب هند لكليتها هذا اليوم؟!

ـ قالت أنها متعبة.

ـ صباح الورد. (قال أبو فهد)

قبل فهد رأس أبيه:

ـ صباحك سعادة أبي

أمسـك فهـد بيـده كأس الحليب، وأخذ بعـض الفطائر.. أفطر على عجل..

ـ علـى مهلـك.. لم العجلة دائما تـأكل وأنت في عجلة من أمرك.

ـ تأخـرت والطريـق سـيكون مزدحمـاً.. لا تنسـياني من دعواتكما.

خرج فهد بسيارته إلى كلّيته.. يحدث نفسه:

ـ هند لم تذهب إلى الكلية سيكون الوقت كافياً للقاء ثريا.. لا بد أن أحدثها.. لابد أن أكون قوياً وجريئاً.

حضر فهد المحاضرة وبعد ذلك وجد وقتا مناسبا ليغادر جامعته ويذهب إلى ثريا.. وعندما وصل كلية ثريا.. ركن سيارته في مكان مخصص للسيارات ثم دخل.. هو يعرف الكلية جيداً ، فقد جاء إليها أكثر من مرة كان يصطحب هنداً وغالباً ما كانت ثريا ترفض أن ترافقهما حرجاً وخجلاً منه.. وقف فهد بالقرب من قاعة ثريا ينتظر خروجها.. بدأ الطلاب بالخروج.. وحين خرجت ثريا رأى فهد مجاهداً يسرع في خطواته.. ثم يقف أمامها وأخذا يتحدثان ويضحكان.. وقف فهد مغتاظا واضعا يديه في جيبيه وهو ينظر إليهما.. فقد الأمل فيما جاء يقوم به وذهبت أفكار ليلته الفائتة أدراج الرياح.. تبعثرت أفكاره وخنقته عبرة كاد يطلقها لكنه تنفس زفيراً حارقاً.. سقطت عبارات البوح في غياهب الصمت لمحته ثريا ، فاستعجلت جاءت إليه تمشي واثقة الخطوة تحتضن دفتر المحاضرات بين ذراعيها تغطي رأسها بحجاب مطرز بني اللون وتتأبط حقيبتها الجلدية ذات اللون البني أيضاً وترتدي حذاء بلون بني أنيق، وعباءة سوداء فضفاضة همس فهد في سره:

ـ كم أنت أنيقة وتشعين كجوهرة..!!!

همست بود :

ـ مرحبا فهد.

رفـع رأسـه.. فوقعـت عيناه فـي عينيهـا.. تبسـمت بخجل.. ابتسم ابتسامة باهتة وهز رأسه ثم رد بنبرة هادئة :

ـ تعرفيـن، يناسـبك كثيـراً.. يليـق بك وتليقين به شـاب وسيم مميز متفوق.. له مكانته وسمعته

ـ من؟

ـ ذاك الذي كنت تقفين معه.

ـ أتقصد مجاهداً؟!

هز رأسه بيأس وعتاب:

ـ نعم

ردت ثريا بثقة :

ـ أنا أقدره واحترمه كثيراً.. فهو يسـاعدني فيما احتاجه من مراجع وما يصعب علي في دراستي.

ـ وماذا أيضاً؟

ـ هذا كل شيء

ـ مـن يراكمـا تمشـيان معـاً وتتحدثـان وتقفـان هكذا يفسـر الامر بأكثر من ذلـك. خصوصاً مـع أناقتك اللافتة.. هل تهتمين بمظهرك لتعجبيه؟

ـ لـم تحضـر هنـد فـلا اظنـك جئـت لتصطحبهـا! لماذا حضرت إذاً؟!

ـ لـم تجيبـي عـن سـؤالي؟ ثريـا.. تكلمـي.. أراك تلعبين بمشـاعري أتقرب منك فتبتعدين أبتعد فأراك قريبة تارة أقول أنـك تكنين لـي حباً مثلما أكن لك وتارة أرى مجاهداً أقرب إليك مني

ـ ماذا تريد مني؟

ـ اصدقيني القول هل تحبين مجاهداً؟

ـ وبمَ يعنيك إن كنت أحبه أو لا؟

ـ أوتسألين هذا السؤال وتسألينه لي أنا؟

ثريا مبتسمة:

ـ أتغار منه ؟!

رد فهد غاضباً:

ـ سأقتله.

ضحكـت ثريا ضحكـة هانئة ثم اقتربت مـن فهد بدلال وجلسـت بالقرب منه تنتظر سـماع بقية حديثه مطرقة بخجل لذيذ..

ـ ثريا أنا أحبك..

احمـرّت وجنتاها كرمانتين أشـاحت بوجههـا عنه خجلة

وطيف ابتسـامة يلوح على فمها وشفتها السفلى ترتعش توتراً.. وقـف فهد هائجاً مشـدود الأعصاب متوفـزاً كأنه حمل فوق حمله أثقالاً كالجبال أضاع أبجديته أمامها.. عجز عن وصف شـعوره الدفيـن الذي يداريه منذ سـنين.. علقـت العبارات في جوفه.. أستجمع قواه ثم قال:

ـ أتعرفين أنني لا أنام حتى تسدلين ستارة النافذة وتطفئين الأضـواء وأبقى سـاهراً أحـرس أحلامـكِ لعل نصيبـا ينالني منهـا ملامحـكِ لا تغيب عني.. صوتـكِ.. عفويتكِ.. ابتسـامتكِ التـي أغمـض عليها عينـي وتصحبني في غفوتي.. ألم تسـألي عـن باقـة الورد التي وجدتها قرب سـريركُ يـوم مرضكِ وتلك الرسـالة الموجودة فيها ألم تتساءلي عن الصورة التي وجدتها فـي حقيبتكُ والعلبة التي تحوي خاتم الكرسـتال والسلسـلة التي كتب عليها اسمكِ.. لِمَ تعذبين من يداري هواك؟! لِمَ هذا الجفاء والجحود؟! أيسقى الحب بماء التجاهل؟

ردت ثريا بصوت هادئ:

ـ قلبي يسـكنه شـخص واحد فقط.. إعتلـى عرش قلبي وبنى صرح الوجد فيه خبأت حبه في حنايا الروح.. هو السماء التي تظهر الثريا فيها.

جلس فهد وشبك أصابعه، وأمال برأسه إلى الأسفل:

ـ لقـد صدق حدسـي.. هو ذاك المعتوه.. هـو القريب منك

رأيت ذلك بعيني.

ـ الـذي رأيته اعتـرف لي بمشـاعره.. صارحني بما يكنه لي..

هتف فهد وحبات العرق تتصبب من جبينه:

ـ وأنتِ لِمَ لم تصارحيه؟!

ثريا وهي تهمس بوجل:

ـ صارحته.. صارحته أن قلبي ليس ملكي قلت له أن قلبي ملك لغيره.

ـ أحقاً قلبك لا يملكه هو؟

نظـرت إليه ثريا.. حـدق فهد بكلتا عينيه منتظراً رداً يبرد النـار التـي تسـتعر فـي قلبه وفـي لحظة مسـروقة مـن الزمن ومقتطفـة مـن حدائـق الوجـد التقـت عيناهمـا وتعانقت تلك النظرات طويلاً هبت نسائم الغيم وفاح عبق الورد من حولهما.

ـ أنت يا فهد من قصدته.. أنت..

فهد وقد ابلجت أسارير وجهه:

ـ من؟ من قلتِ؟ لم أسمع

ثريا بصوت خجول:

ـ أنت.. من خبأتك في شغاف القلب بوحا صامت.

قفز فهد عالياً وصرخ بأعلى صوته:

ـ أخيراً.. أخيراً سمعتها منك...

اخـذ مـلأ كفيـه أورق الأشـجار المتسـاقطة ونثرهـا في السماء.

ثريا وهي تبتسم: اهدأ ، يا فهد الكل ينظر إليك.. سأذهب إن لم تهدأ...

فهد والدموع تلمع في عينيه:

ـ هـل أضحـك؟ أم أبكـي؟ أريـد أن أحدثهـم أننـي أحبك اليـوم ولـدت يا ثريـا.. ولدت من جديـد.. أتذكريـن ذلك اليوم الممطـر حيـن كنتِ عائدة من المدرسـة.. نظرت من الشـرفة فرأيتـكِ مـن بعيد وأنتِ تركضين نزلت بسـرعة وأخذت مظلة وركضـت نحوكِ كنتِ قد تبللتِ وحقيبتـكِ بين يديكُ ناولتكِ المظلـة وحملـت الحقيبة عنـكِ. قلتِ: "وأنت سـوف تتبلل". قلت لـكِ: "لا يهـم أنت سـتمرضين إن تبللت بالمطر". ومشـيت معك حتى وصلت.. يومها مرضتِ أنتِ من البرد ومرضت أنا ولهاً بكِ..

ضحكت ثريا:

ـ أعـرف.. أتذكـر يـوم وقعـت وجرحت سـاقك وسـالت الدماء كنت أبكي وكنت أنت تضحك كتبت اسـمي على جذع الشجرة بدمك وكنت كلما مررت بها ابتسمت وارتعش قلبي وتذكرت خوفي وحبي لك..

كانت تتحدث وأسـارير وجهه تطفح فرحاً وسرورا وفجأة

صمتت.. وتلاشت تلك الفرحة وأسدلت الكآبة ستائرها على ملامحها..

ـ ثريا ما بكِ.. مالي أرى غيمة الكآبة تمطر من وجهك الحبيب

ـ تحدثت كثيراً وأبديت لك مشاعري ونسينا أن هناك الكثير من المصاعب التي سوف تواجهنا ولن نقوى على الصمود بوجهها.

ـ عن أية مصاعب تتحدثين؟! لقد وجدتك وخبأتك بقلبي ولن تستطيع اية مصاعب ان تقف أمام حبي لك.

ـ أنا كما ترى من عائلة مستورة الحال وأنت ابن حسام الذي إن ذكر ذكر الترف والغنى..

رد فهد بغضب:

ـ ما هذا الكلام؟ تتحدثين عني كأنك لا تعرفينني..

ـ أنا لا اقصدك أنت.

ـ تقصدين من؟

ـ أمك يا فهد لا تهتم بأمثالنا فنحن بالنسبة لها فقراء كثيراً ما أرى اهتمامها ببنت خالتك سهى وقد أخبرتني عنها هند أنها تريدها لك وأنت لم ترد لها جوابا.

ـ ثريا.. أمي والدها اغترب في بريطانيا ، وبعد موت والده

حصـل علـى ثـروة طائلـة فأصبح مـن الأغنياء وحيـن تزوجت والدي كان من عائلة متوسـطة، بذل قصارى جهده لكي لا تشعر بالفرق بينه وبين عائلتها وعمل واجتهد حتى صار قريبا منهم وأصبح في مستواهم بل وأفضل منهم.. صحيح.. حدثتني أمـي عن سـهى لكن فـي كل مرة أقـول لها ليـس الآن على الرغم من إلحاحها.. سـهى تهتم بي وتريد الارتباط بي لكنني لا أريد ذلك.. أنا أريدكِ أنتِ فقط.. لا أريد من الدنيا سـواك.. لقـد اكتفيـت بكِ أنتِ.. فـلا أرى في الدنيا أحـداً غيركِ أنتُ عالمي الذي أجد سـعادتي فيه.. لا أشـعر بالحياة إلا بقربكِ، ولا معنى لأي شيء إلا معكِ.. أنت كل المعنى وكل الوجود..

ردت ثريا بصوت حزين:

ـ فهـد تريث.. فكـر.. ربما ترفـض أمك ارتباطك بي ماذا سيكون موقفك؟ ماذا سأفعل أنا؟!

ـ لا أحد سـوف يقف أمامي ويعـارض اختياري.. حتى وإن رفضت سأرفض طلبها.. لا أظن أنها ستقف أمام سعادتي.

ـ وإن وقفت؟!

ـ لو تقف الدنيا بأكملها سـأكون لكِ، وتكونين لي ما حييت أعدكِ.. إلا إذ خطفني الموت.

ذرفت ثريا دموعها:

ـ لا تقـل مثل هذا الـكلام.. وأنا أعدك انني لك ما حييت

سأنتظرك ما دمت على وعدك وعهدك..

تساقطت أوراق الخريف وعزفت سمفونية الحب الدافئ الذي بدأ يستقبل ربيعه لتتفتح أزهاره وورود.. تغني أطياره وترقص فراشاته فالحب ثقة وانسجام.. وفاء وعطاء.. عهود لا تحنث.. ووعود لا تخلف ومواثيق لا تصل إليها يد الخيانة مهما طال زمن الفراق..

الفصل الثالث

(1)

درع أمير الشعراء

دلف صالح إلى غرفة ابنه عمر، فقد تأجج قلبه شوقا إليه، تأمل كتبه المرتبة على المنضدة وأوسمة التقدير وبعض الكتب المصفوفة على رفوف مكتبته.. ورفع بصره نحو شهادة الحرف الذهبي وهي تتصدر جدران الغرفة، ثم جلس إلى مكتبه يقلب بين مذكراته ويقرأ: "أحلامنا تسرق لذيذ نومنا، فيرافقنا السهد ليالياً طويلة.. الأحلام قد لا تتحقق مادام من يريدها لا يعشق القمم.. قد تتعالى أحلامك فلا تبتئس قف على أطراف أصابعك وألمسها لتصبح واقعاً جميلاً". أطلق زفرته الممزوجة بالحنين ثم أكمل: "خلف منعطفات الانتظار.. أمنيات طال غيابها.. ننتظرها يرهقنا الانتظار كثيراً.. فنتكئ على جدران الأمل.. لعلها تسرع في خطواتها قليلا.. كسراب هي كلما تراءت لنا ابتعدت أكثر.. عطشنا دون أن نرتشف من ينابيعها شربة فرحة.. متى ستحط خطاها على طريق الانتظار لتصل إلينا فنحن مازلنا في انتظارها"

أغلـق صالح مذكـرات ابنه، ثم أطلق زفـرة حارة أغرقت أهدابه بالدمع.. فتمتم بشفتين جافتين:

"لا تحسب المجد تمرا أنت آكله

لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا"

ـ آه.. صار قريبا يا بني.

خرج و أغلق باب الغرفة، بعد أن رفع يديه داعياً:

ـ يارب حقق له ما يصبو إليه.

عمر في سـفر خارج الوطن.. ليمثل دولته في مسابقة دولية للفوز بدرع أمير الشـعراء.. تلك هي الأمنية التي سـرقت لذيذ نومـه.. وأحالت لياليـه جحيما يتلظى فوق نـاره.. وها هو اليوم يعـود ليسـطع نجمه لامعـا على مسـتوى بلـده.. ذاع صيته في كثير مـن منتديات الشـعر والكتابة، هو يكتب بشـاعرية مرهفـة، ولغة جزلة، متمكن من أسـرار الكلـم.. كيف لا وهو حفيد معجزة الشعر اليمنيّ "عبدالله البردوني".

لقـد أشـرف عمر علـى كثيـر من الأمسـيات الشـعرية، يمتلك صوتاً عذبا كصوت محمود درويش عند القائه الشـعر وهو متأثر به كثيراً ومحب لشـعره، ومن عشـاقه. من خلال التلفاز كان صالح ينصت إلى شـعر ابنه عمر، وتذرف عيناه دمعا حينما يسـمع ثناء لجنة التحكيم على شـعره.. كان في الصدارة.. حين يقف ويصدح بصوته الرخيم، فتشرئبّ الأعناق

إليـه إعجاباً وتقديـراً.. ورغم أنه قصيـر القامة، لكنه كان وسيماً؛ عريض المنكبين، جميل الابتسامة، أسمر البشرة، كث الشعر، أمرد، ذو عينين لوزيتين تتسعان وتبرقان عندما يطلق العنان للسانه ويغرف من بحور شعره.

في صباح ذلك اليوم، أشـرقت الشـمس على صوت صياح حفيـد صالح، فقـد رزق ابنه البكـر أحمد بمولـود.. إنه أول حفيد.. لم تسعه الدنيا فرحا، وهو يحمله بين يديه فمنذ وقت طويـل لم يحمل طفلا بين يديه. كانت ثريا تتأمل ملامح وجه أبيها فلم تره سعيداً كمثل ذلك اليوم.. أخذت تمازحه:

ـ أيشبهني يا أبي؟! لابد أنه يشبهني فأنا عمته..

حدق بها، وشرد بذهنه، عادت به الذاكرة إلى ذلك اليوم الذي حملها بين يديه. فتمتم بينه وبين نفسه:

ـ لا يشبهكِ.. وهل يوجد شبيه للقمر

كادت دموعه تسـقط والعبرة قد ألجمته. ناولها إياه وهي حائرة مشدوهة:

ـ ما سـر حزنه فجـأة.. ما بال تلك الدمـوع التي لمعت في عينيه؟

قبلها على رأسها ثم قال:

ـ لا أحد يشبهكِ، أنتِ "نور الدار".

تبسمت..

أم أحمد تنادي من المطبخ:

ـ حفيدك يا صالح، يشبهك.

صالح وهو يضحك:

ـ لا أنا أجمل منه، انظري إلى حفيدك إنه أسمر.

ضحـك الجميـع. كان ذلك اليوم مميزا عنـد الجميع.. في الصبـاح ملأ الفرح البيت، وفي المسـاء تعالـت الزغاريد فقد فاز عمر" بدرع أمير الشعراء". كانت الفرحة فرحتين، بكى صالح من شـدة الفرح، فقد أصبح عمـر قريباً من حلمه.. وزّع صالـح الحلويـات استبشـارا بعمـر الصغيـر، واحتفـالا بعمر الكبيـر.. وبعـد أسـابيع.. عـاد عمر وقد لامسـت يده سـقف حلمه، أقيم له حفل عائلي فرحا و ابتهاجا، فقد تصدر اسمه الصحـف، وطلبـت بعـض القنـوات اسـتضافته.. لمع اسـمه.. سـلطت الأضـواء عليـه.. وصـار عضـواً ذهبياً لرابطة شـعراء اليمن. تفرغ لتحضير دراسـته العليا، فقد تخصص في الأدب واللغـة. واهتم بالشـعر وكل مـا يتعلق بـه كان صالح فخوراً بابنه عمر، فهو من حقق له حلمه الدفين.

(2)

في العيادة

رقد محمد في المستشفى بعد أن ارتفعت به الحمى واحتاج لنقل دم، محمد هو الابن الأصغر لصالح كان منذ صغره يعاني من تكسرات الدم (الثلاسيميا) وزادت معاناته مع المرض حين كبر.. محمد نحيل الجسم، أبيض البشرة، شارف على الخامسة والعشرين من عمره وما زال يعاني ويلات وآلام المرض، كانت برفقته ثريا ووالدهما، أقبل أحدهم فسلم على صالح:

ـ كيف حالك، يا عم صالح.

نظر إليه صالح نظرات استغراب ودهشة ثم رد:

ـ الحمد لله

ـ ألم تعرفني يا عم.

ـ أنا "سامر"

عندها احتضنه صالح وأخذ يمسح على كتفيه أعذرني يا بني يبدو أنني كبرت كانت ثريا تنظر إليهما مشدوهة:

ـ من هذا الشخص الذي يسلم عليه أبي بهذه الحفاوة؟

كان ذلك الشـخص، شـاباً طويل القامة، أبيض البشـرة ذا عينين كحيلتين وحاجبين مقوسـين، أسود الشعر كث... كـث اللحيـة جماله ينبع مـن ابتسـامته.. أنيق مهنـدم.. أقبل نحوهمـا.. فحص سـامر محمد، وسـأله عن حالـه، واطمأن صالح أنه بخير..

ـ ثريا هذا الطبيب سامر ابني العزيز طال غيابه، وظننت أنني لن أراه.

ـ تشرفت بمعرفتك. (قالت ثريا)

ـ أهلا وسهلاً. (رد سامر)

صالح:

ـ أين اختفيت منذ سنين. (قال صالح)

ـ سـافرت خارج البلـد لأكمل دراسـتي.. تخصصت طب أطفال، والحمد لله عدت قبل عام، اشتريت عمارة في مدينة المنصورة أقطنها أنا ووالدتي.. وأعمل في عيادة خاصة بي.

قاطعه صالح:

ـ وعمك ألم تعد المياه إلى مجاريها

طأطأ سامر برأسه:

ـ الجشع يا عم أعمى بصيرته.

نظر سامر إلى ثريا وهي تسحب الدم من يد محمد وتضعه في علبة خاصة لتذهب بها للمختبر

ـ هل تجيد ممارسة التمريض؟

ـ نعـم.. تخرجت من كلية الطـب، تخصص تمريض منذ شهور، لكنها لم تجد مكانا مناسبا تمارس فيه مهنتها.

ـ ما رأيك أن تعمل معي في العيادة أنا أبحث عن ممرضة،

رد صالح مبتسما:

ـ الرأي لها.. لكن لا أريدها أن تعمل مساءً المكان بعيد.

ـ في الصباح إن أرادت

أجابت ثريا:

ـ لا مانع عندي، أتشرف بالعمل معك أيها الطبيب

سامر: على بركة الله، هذا عنوان العيادة، وإن أردتِ من الغد

أنا هنا أشرف على بعض الأطفال الذين أخضعتهم لمراقبة مكثفة، وأتابع حالاتهم المرضية بين الفينة والفينة.

ودع سامر صالحاً بعد أن تعانقا.

ثريا:

ـ مـن أيـن تعرفه يا أبي، مظهره يـدل على أنه غني لكنه متواضع ولبق في كلامه.

رد صالح بزفرة حزن:

ـ أعرف عمه، وبعد المشاكل التي حدثت بينهما، كان سـامر يأتيني يشـكو سـوء تصرفات عمه، وقفـت معه ضد عمـه فقد كان هو صاحب الحق. وبعد ما حدث ما لم يتوقع، اختفى سامر ولم أعلم عنه شيئاً إلى أن رأيته الآن.

ثريا وقد اتسعت حدقتا عينيها:

ـ ماذا حدث يا أبي؟!

أردف صالح بعد تنهيدة من أعماقه:

ـ قصـة طويلـة يـا ثريا تدمـي القلب.. الوقت غير مناسـب لسردها.

عم الصمت.. وفي المساء غادر محمد المشفى إلى البيت.

فـي أول يوم مـن مزاولتها للعمل.. لبسـت معطفها الأبيض ولفـت حجابها حـول رأسـها وعنقها، كان من قماش أسـود لمعت كنجمة الصبح التي تتلألأ مع بزوغ الفجر.. كزهرةِ فل متفتحـة تعانق بتلاتهـا قطرات الندى. وصلـت العيادة.. مدخل العيادة نظيف.. مقاعد الانتظار فضية اللون يزين جدرانها طلاء وردي، بعـض الصور معلقة على الحائـط.. لوحة على المدخل مكتـوب عليها بخط جميل.. "وإذا مرضت فهو يشـفين" صور طبيعيـة تبعـث فـي النفس الراحـة.. صور الأطفـال ووجوههم مبتسـمة.. رائحـة المعقم تفـوح من أرضيـة العيـادة، فالخالة

سـعيدة المسؤولة عن أعمال التنظيف تقوم بتعقيمها وتلميعها يومياً ، ولعدة مرات.. وتتقاضى راتباً شـهرياً لقاء عملها ، فهي أم لأربـع أطفال أيتـام تحتاج لإعالتهم.. والخالة سـعيدة تكن الحب للطبيب سامر فهو يحسن معاملتها وتقديرها. بدأت ثريا تدخل المرضى على الطبيب تداعب الأطفال وتسـاند أمهاتهم تصغي لمن يسـأل وتلك الابتسـامة لا تفارق محياها. جاء وقت انصرافها فطرقت الباب على الطبيب:

ـ دكتور هل استطيع الانصراف الآن؟

وقـف الطبيـب من مكانـه.. نعـم، ثريا تسـتطيعين كان عملك اليوم رائعا رأيت المرضى مسرورين، كانت الممرضة التي قبلك لا تمتلك أسلوباً يليق بالمرضى وطالما شكى منها المرضى ومن قسوتها فاستغنيت عن خدمتها على الرغم أنني في أمس الحاجة لممرضة ، والحمد الله أنني وجدتك، وجدت من تجيد التعامل مع المرضى برقي ورفق.

رافـق الطبيـب ثريـا إلـى مخـرج العيـادة وكان يحدثهـا والابتسامة تملأ وجهه

أقبلت هدى، فسلمت على الطبيب سامر

ـ هـدى أعرفك على صديقتك الممرضة "فراشـة العيادة" ثريا يليق بها هذا اللقب.

هدى، وهي تحدق بها:

ـ أهلا ثريا.

ـ أهلا بك هدى.

تبسمت ثريا وودعتهما وانصرفت

لم يصرف الطبيب سامر نظره عنها حتى غابت

دكتـور متى سـتذهب للمنزل تأخر الوقت وسـوف تتأخر عن المرضى مساءً. (قالت هدى)

لم ينتبه سامر لما تقول..

ـ دكتور.. هل أنت معي؟!

ـ ها نعم، نعم معك!

انصـرف سـامر واغتاظـت هـدى من شـرود ذهنـه.. هدى تخصصـت فـي المختبـرات، تتميز بـذكاء عـال تتقرب من سـامر وتهتم به كثيراً لكنه لم يأبـه لذلك الاهتمام ويتهرب منـه. هـذه هي المرة الأولـى التي تراه يحدق بفتـاة منذ دخلت العيادة همست في نفسها:

ـ إنها ساحرة الجمال.. لقد ضعتِ يا هدى!

طلبـت هدى من سـامر أن تعمـل معه كذلك فـي الصباح فهي لا تسـتطيع العمل مسـاءً.. وافق سـامر على طلبها.. بدأت هدى تتقرب من ثريا، وتكسب ودها لتكسب ود سامر على الرغم من بغضها لها.

ـ ثريا تعالي أريدك. (قال سامر)

دخلت ثريا وأغلقت الباب غرفة الطبيب صغيرة لكنها جميلة.. شهادة تقديره معلقة على الحائط.. مجسم مراحل نمو الطفل.. ستائر زهرية اللون، سرير ناصع البياض خاص بالمرضى أضواء هادئة، وتكييف أمامه على المنضدة، بعض الملفات.. أوراق مرتبة.. مزهرية ورد.. علبة حلوى، كلما دخل طفل أهداه قطعة.. خرجت ثريا وكان بين يديها دواء للصغير أمجد الذي أمر الطبيب بإخضاعه للمراقبة في أحد المستشفيات مدة أسبوعين ثم عاد به والده إلى العيادة لأخذ الدواء المجاني، والداه لا يملكان ثمن الدواء فالكثير من المرضى يأخذون الدواء مجانا إضافة إلى الفحص المجاني.. كانت ثريا تحب تلك الصفة في الطبيب سامر وتحدث والدها عنه وعن حب المرضى الفقراء له يوماً بعد يوم تعلقت ثريا بالعيادة، وأحبت العمل فيها.. في الصباح تحمل في جيوبها بعض الحلوى للصغار الذين يرتادون العيادة يحدث لها معهم قصة كل يوم حتى أصبح المرضى لا يعرفون في عيادة الأمل إلا الممرضة ثريا.. اغتاظت هدى فبعض أهالي المرضى يتجاوزونها، ويذهبون إلى ثريا يمسكون بيدها لتشرف على أبنائهم، وتعتني بهم.. بدأت الغيرة والكره يحرقان قلب هدى.. واغتاظت أكثر حينما مرضت ثريا وتغيبت عن

العيادة لمدة يومين فغابت ابتسـامة الطبيب سـامر كأنه فقد شـيئاً ثميناً.. في ذلك الصباح الذي عادت فيه ثريا إلى العيادة حمـل بين يديه باقـة ورد وأهداها إياهـا.. اختلقت هدى قصة وأخـذت تحدث ثريا عنها.. وفهمت ثريا أن هدى تحب الطبيب سـامر وتخـاف مـن اهتمامـه وتقربـه لغيرها فمـا كان منها إلا أن حدثتهـا عن حبهـا لفهد وتعلقها به فطـارت هدى فرحاً وأصبحت صديقة لها.. لاحظ سـامر اهتمام هدى بثريا لكنه لم يعرف ما حدث.

(3)

حفلة

طرقت هند الباب، ففتحت لها أم أحمد.. قبلتها على رأسها:

ـ كيف أنتِ يا خالة

ـ أين ثريا؟

ـ عادت متأخرة من العيادة وهي الآن نائمة ادخلي إليها.

ـ حسناً.

طرقت باب غرفتها.

نهضت ثريا:

ـ ادخل

دخلت هند معاتبة:

ـ لِمَ لم تخبريني أنك تعملين في العيادة؟

ردت ثريا مندهشة:

ـ من أخبركِ؟

هند غمزت لها بإحدى عينيها:

ـ ومن غير حبيب القلب.

ثريا بصوت خجول:

- تقصدين فهد!

هند ساخرة:

ـ لا أنا!

ـ لم أخبر أحدا ولم أرَ فهداً منذ أيام. فكيف عرف؟

هند مبتسمة:

ـ قلبـه دليلـه.. هـو منزعج من عملـك في العيادة.. سـامر "صاحب العيادة" صديقه..

ثريا غاضبة:

ـ ماذا في الأمر؟

ـ لا أدري.. ربما الغيرة!

ـ دعيك منه، أخبريني.. ما الذي جاء بكِ في هذا الوقت؟

ـ اتصلت بكِ، هاتفكِ مغلق، فأتيت إليك بنفسي.

ـ أريدكِ غدا في البيت..

ـ ماذا هناك؟

سـأقيم حفلـة متواضعـة، سـتحضر خالتـي، وبناتهـا وصديقاتي، وجميع الأهل.

ثريا وقد اتسعت احداقها:

ـ ما المناسبة؟

هند بصوت مشحونا بعتاب:

ـ أنسيتِ أن غداً عيد ميلادي، العيادة سلبت عقلك

ردت ثريا بنبرة هادئة:

ـ العمل مرهق نسيت حتى نفسي.

ردت هند غاضبة:

ـ أخاف أن تنسيني أنا أيضاً!

ـ لا تخافي.. هل مثلك ينسى؟ تعرفين لا أحب حفلات الميلاد.. هكذا عودني أبي، لكن من أجلك، يا رفيقة الدرب سآتي.

ردت هند بفرح:

ـ سأنتظركِ غداً عصراً.. فأنت أعز صديقاتي.

ـ حسناً سأحاول..

غضبت هند، وخرجت.. ركضت خلفها ثريا أمسكتها بيدها، وهي تضحك

ـ أمزح، يا هند لا تغضبي سآتي إليك ولو حبواً.

تبسمت هند وودعتها.

قطعت هند كيكتها التي زخرفت بحروف اسمها.

وأطفأت شمعتها الثالثة والعشرين، صفق الجميع.. كانت هند ترتدي ثوباً بنفسجي اللون "مصنوع من قماش الشيفون ومزين بالترتر" وكان قصيراً متناسقا تماما مع تفاصيل جسدها وشعرها المنسدل على كتفيها زادها جمالا وجاذبية مع بشرتها الحنطية وعينيها العسليتين الناعستين اللتين تخفيان في حناياهما الكثير من الصمت.

ـ قمر أنتِ، يا هند ذوقكُ في انتقاء الفساتين راق جداً. (قالت سهى)

ـ شكراً حبيبتي سهى.

ثريا مبتسمة:

كل عام وأنتُ صديقتي.

تعانقا طويلاً حتى كادت الدموع تفصح عن طول ذلك العناق. همست أم سهى لحبيبة:

ـ من هذه التي تعانق هند؟

ـ ثريا صديقتها، وجارتنا. (قالت حبيبة)

ـ ما شاء الله!

ـ تبارك الخالق آية في الجمال! انظري لفستانها الذهبي، ذي الاكمام الطويلة المصنوعة من "الدانتيل" كأنها أميرة.

انظري لشعرها الحريري المنساب إلى خصرها.. وخصرها النحيل حوراء العينين، وابتسامتها التي تزين خدها بغمازة تزيدها سحرا، وجمالا.. يا الله! تبدو قمراً يتلألأ في كبد السماء ليلة تمامه.

حبيبة مزمجرة:

ـ أراكِ معجبة بها.

ـ ما بكِ؟

ـ نسيت أنني حدثتكِ عنها.. أن فهد مهتم وأشعر أنه وقع في حبها.

ـ ما المانع من ذلك، وهي بهذا الجمال، والدلال مادام يحبها اخطبيها له.

ردت حبيبة بغضب:

ـ متى تفهمين أقول لكِ لا أريدها.. لا تناسب فهداً. ولا تليق به.

أريد سهى لفهد، لأنها تحب فهد.. متى تفهمينني؟

ردت أم سهى بنبرة حزينة:

ـ حبيبة لا تظلمي ابنتي.. مادام ابنك يحب غيرها..

ـ هو يحب سهى، وسيتزوجها مهما كلف الأمر.. وسترين.. كانت سهى تراقب ثريا، والغيرة تحرق أحشاءها فقد

ارتـدت أجمل ما عندها (فسـتانها الأحمـر القصير المصنوع مـن الشـيفون الفاخـر) مفتـوح الصـدر، بـدت فيـه بكامل أناقتها، وشعرها الأشـقر القصير الذي يحاذي شحمة أذنيها تزينه بطوق من الكرسـتال ووجها مستدير ممتلئ، و بشرتها البيضـاء، وعيناها الكحيلتان تبرق منهما الغيرة، والحسـد لثريا التي لم تغب عن طرفها.. وقفت سهى بالقرب من حبيبة، تتهامسـان اقتربت سـهى من ثريا وهند متسـائلة.. سـهى وهي تلعب بخصلة من شعرها:

ـ هند متى يعود فهد إلى البيت؟

ـ في منتصف الليل.

سـهى وهي تعدل السوار المرصع بالكرستال غالي الثمن في معصمها:

ـ إذاً سأنام هنا لكي انتظره..

اقتربت حبيبة من سهى:

ـ سـترينه حبيبتـي سـتكونين معـه عن قريب.. سـيصبح خطيبكُ.

سهى وهي تنظر لثريا بنصف طرف:

ـ اخجلتيني يا خالة..

حدقت هند بثريا، تلاشـت تلك الفرحـة التي كانت تزين

ملامحها ، وعلقت بين أهدابها دموع حبست، عبرة تكاد تخنقها ، أسدلت على ذلك الشعور شبه ابتسامة أمسكت يد هند بقوة.. فشدت هند على يدها.. همست إليها هند :

ـ ثريا فهد يحبكِ لا تخافي كوني قوية

خرجت وعيناها تمطران دمعاً سخيناً رافقتها هند إلى بوابة الفيلا لم تستطع النظر في عينيها فجأة فتح الباب وإذا بفهد واقفٌ أمامهما أغلق الباب كانت يداه خلف ظهره وابتسامته تملأ وجهه حدقت ثريا به كثيرا وتناثرت دموعها أمامه لم تستطع أن تخفي دموعها على الرغم من تماسكها تلاشت فجأة ابتسامته ، وأسدل يديه كان يحمل طوقان من الياسمين.. فهد بصوت حنون:

ـ ثريا ما بكِ؟

ردت ثريا وهي تكفكف دموعها :

ـ لا شيء

هي دموع الفرح برؤيتك، وبعيد ميلاد هند همس فهد في نفسه:

ـ أعرف دموع الفرح لا توهميني فدموعكُ هذه تركت أثرها على وجنتيكِ..

تأملها وطرفها المبلل بالدمع كاد يغرقه حزنا وكمدا

اقترب منها ووضع الطوق على رأسها نظر إليها وقال في نفسه:

ـ اشـرقي وأضيئي غياهب أعماقي.. أطفئي لهيب الشـوق بغيـث طرفكِ.. أيـلام من وقع في حب نجمـة.. إن بات يكابد السهر ليحظى بوميض منها..

ـ أحـم أحم! نحن هنـا.. اليوم عيد ميلادي أنا، وليس عيد الحب! أين هديتي؟

وضع الطوق الأخر على رأس هند.. واحتضنها..

ـ لم أنس هديتكِ، ولست وحدكُ

ردت هند بغضب:

ـ أهذه هديتي فقط!

ـ ألا تكفي؟! هل أجمل من طوق الياسمين؟!

ـ لا.. ليست هدية بالنسبة لي.

ضحـك فهد، وهو يسـترق النظر إلى ثريـا يريد أن يحظى ولو بنصف ابتسامة أخرج من جيبة علبة..

ـ وهذه هديتكِ، يا أجمل هند.

ـ فتحـت هنـد العلبـة، وأخرجـت منها سلسـلة مـن ذهب مكتوب عليه اسمها.

هند وقد انبلجت أسارير وجهها:

ـ الله مـا أروعـه! أحبـك يا أغلـى أخ.. أخـرج علبة أخرى،

وأمسكها بكلتا يديه وقدمها إلى "ثريا" خجلت ثريا امتنعت عن أخذها.. نظر فهد إلى هند وأشار لها برأسه فأخذت العلبة وقدمتها إلى "ثريا"

هند مبتسمة:

ـ افتحيها لأرى تبدو أجمل من هديتي.

فتحتها ثريا كانت عبارة عن "سوار من ذهب" أمسكته هند ووضعته في معصم ثريا.. تلألأ كنجوم في معصمها .. تأمله فهد ثم تمتم:

ـ لم أره ذهبا ، إلا حين وضع في معصمكِ.

هند وهي تمسك بيد ثريا :

ـ يا لجماله إنه رائع!

شكرت ثريا فهد وانصرفت على عجل أمسك فهد هند بمنكبيها

ـ ما القصة؟

ردت هند :

ـ أي قصة؟؟

ـ قصة دموعها.. لا تتظاهري بالغباء.. رأيتها حزينة لم أرَ الحزن في عينيها من قبل من ضايقها من تحدث معها أخبريني.

قصت هند لفهد ما حدث.. فاحمر وجهه واغتاظ وترك

هنداً وخرج.. كانت سهى خلف النافذة تراقبهم

حينما عادت هند سألتها:

ـ لمـاذا لـم يدخل فهـد؟ مـاذا كان يفعل معكـم؟ بماذا كان يحدث ثريا؟؟

غضبت هند وزجرتها.. سهى صارخة:

ـ أنـا أعرف أنكِ تحبين ثريا أكثر مني لذلك لا أسـتطيع أن أنـام هـذه الليلـة معكِ كنـت أود أن أراه لكن تلك الأفعى تحول بيني وبينه نزلت حبيبة من الطابق العلوي، ورأت سـهى قد فتحت الباب تريد المغادرة.

سـألتها فلـم تـرد عليهـا، وأغلقـت الباب وذهبـت غضبت حبيبة، ونادت هنداً.

ـ نعم، يا أمي.

ـ لم ذهبت ابنة خالتك؟

ـ أرادت أن تحدث فهداً، لكنه ذهب فغضبت منه.

ـ أين هو الآن؟

ـ لا أدري.

جلست حبيبة في الصالة تنتظر فهد على أحر من الجمر..

(4)

حقيقة أم خدعة

عـاد فهـد متأخرا فتـح الباب واضعـا يديه فـي جيبه وهمّ بصعـود الـدرج لـم ينتبه لأمـه "كانـت تجلس علـى الأريكة البيضـاء وضعت إحدى رجليها على الأخرى" عندما رأته قالت بحزم:

ـ فهد تعال إلى هنا.

تسـمر فهـد في مكانه فقـد كان متضايقـاً و لا يريد أن يسمع أحدا.. جر خطاه نحو أمه وقف أمامها وهو مطرق رأسه حبيبة بصوت هادئ:

ـ تعال يا حبيبي واجلس جواري.

قبل فهد رأس أمه.. فهد بصوت يكاد لا يسمع:

ـ خير يا أماه.. ماذا هناك؟

حبيبة وهي تضع يدها على كتفه:

ـ كل خيـر يـا قلب أمك.. كانت سـهى هنا.. غادرت قبل قليل.. كانت تريد أن تراك هي شغوفة بك، يا فهد.

أسند ظهره على الأريكة، ونفث زفرة يملؤها الضجر:

ـ أماه، كم مرة أحدثكِ أني لا أفكر بأحد لا سهى، ولا غيرها

حبيبة بنبرة غاضبة:

ـ أنت لا تريد سهى، أنا أعرف أنك تحب ثريا، قرأت ذلك في عينيك صمت فهد وهمس في نفسه:

ـ آه.. لا غـرو أن تقرئي حبها فـي أحداق عيني.. هناك بين الأجفان خبأت حبها.. ما يفضح العاشق غير حبيبته التي يظل طيفها يلاحقه أينما حطت خطاه.

أردفت حبيبة بغضب:

ـ تحدث.. هل نسيت أنك أبن المهندس حسام؟ لا تليق بك إلا سـهى بنـت المهندس ماجد.. تريد ثريـا ابنة صالح صاحب المتجر.

اعتدل فهد في جلسته رد بصوت حزين:

ـ أمـاه أرجـوكِ افهمينـي.. نعم؛ أنا أحبها، ليـس من اليوم منذ أن كنا صغارا، هي فقط من ملكت قلبي لا يهمني بنت من كانت، أعرفها أكثر من نفسي.

قاطعته أمه بصوت حاد ملأ أرجاء الفيلا:

ـ كنـت أعـرف أنهـا سـلبت عقلك، مـاذا أقـول لخالتك

وابنتها وأنا قد منعت الخطاب عنها لأنها لك

دلـف أبو فهـد من الباب وقف مشـدوها بين ذلـك الصراخ والهمهمة:

ـ ماذا يحدث؟

حبيبة وهي تضرب بكفيها على فخذيها:

ـ تعال يا حسام واسمع ابنك يريد أن يتزوج ابنة صالح

أردف أبو فهد بصوت هادئ:

ـ دعيه يختار ما يناسبه.. سعادته فيما اختار.

تهلـل وجـه فهد وانبلجت أسـاريره واقترب مـن والده وقبل رأسه فهد، والابتسامة تترنح على شفتيه:

ـ حدثها يا أبي أن سـعادتي ستكون مع ثريا هذه حياتي، أنا المسؤول عنها جن جنون حبيبة

ردت بنبرة ممزوجة باحتقار:

ـ سعادتك مع سهى بنت الحسب والنسب ليست مع لقيطة وجدت على باب مسجد.

أبو فهد وهو يعض على شفتيه:

ـ حبيبة ألزمي حدكِ، ما هذا الكلام؟

ردت وقد علا وجهها تباشير الانتصار:

ـ لم لا تحدثه عنها لم تخبئ عنه.. طفح الكيل يا حسام،

ماكنـت أخشـاه وقـع.. قص له قصتهـا.. لم يعد هنالك شـيء يستحق الكتمان.

لم يسـمع فهـد إلا كلمة لقيطة كانت بالنسـبة له كلمة تحتـاج لمعجـم لكي يعـرف معانيهـا لعلها تحمـل أكثر من معنـى ربما هـي كلمة تطلق على من يغار مـن جمالها أو ربما هـي كلمة لذوي الطبقة الدنيا لا لا أظنها تقصد القبيلة التي تنحـدر منها أو المدينة التي ينتمي إليهـا والدها الفقير جالت تلك العبارات والمسميات في فكر فهد وتشتت أفكاره. فهد وقد جحظ عينيه:

لقيطة... لقيطة! لم أفهم

ردت حبيبة بعد أن أسـندت ظهرها على وسـادة من الريش مبتسمة:

ـ اسأل والدك

تشبث فهد بأبيه.. فهد بصوت متهدج:

ـ أبي اصدقني القول هل صحيح ما سمعت؟!

صمت أبو فهد ، وأطرق رأسـه.. كان فهد كطفل يتشبث بثياب والده وعيناه تلمعان بانكسار وذل.

ـ لم أفهم شـيئاً.. لقيطة.. ومن ثريا؟! أرجوك قل أي شـيء لكـن لا تقل لقيطة.. قـل إنها يتيمة.. قل لـي افهمني ما معنى

لقيطة؟

وبعد إلحاح فهد أجاب والده بصوت مشحون بالحزن:

ـ نعم صحيح، ثريا ليست ابنة صالح هي لقيطة تبناها صالح

وجدها يوماً من الأيام بجوار مسجد الحي كانت تلك الكلمات كالصاعقة خطفت مسامع فهد وهند..

طار سمع هند، وضعت يديها على خديها وعلت وجهها علامات الاستفهام.

ـ كيف؟ متى؟ وأين؟

تهادى فهد في خطواته وأراد أن يصعد الدرج زاغ بصره.. علته غشاوة فجلس ووضع رأسه على ذراعيه يداه ترتعشان، تنفس بصعوبة في اللحظة غرق في لجج الخضم فماجت به وهاجت وطغت.. لم يعد يسمع حتى نبضات قلبه تلاشت نبضاته.. تجمدت الدموع في أهداب عينيه.. تاه بين أزقة الكلام، وضجيج تلك العبارات لم يسمع إلا صوت زفيره، وشهيقه البطيء.. أراد أن يصرخ لم يستطع فكيف لغريق أن يسمع صوته واليم يقذفه إلى أعماقه.. ارتمى على سريره كأن أطرافه متجمدة دون حراك.. وحيدٌ هو في معركة ضارية.. خاضها بكل قوة لكن سهماً ما غرز في خاصرته فنزف.. وسقط سلاحه من يده ذلك السلاح هو الحب الذي

عشعش في أعماقه فقد قطع عهداً ، ووعداً لثريا أنه سيحارب الدنيا من أجلها لا شيء سيقف أمامه لكن كيف سيحارب ، والجـرح عميق وينزف بغـزارة كيف لنا أن نحافظ على عهودٍ قطعناهـا ووعـودِ التزمنـا بها وهناك أشـياء تحـول بيننا وبين الوفـاء بهـا أكبر من قدراتنا .. سـنكون في نظـر من أحببنا عاجزين .. خائنين .. حانثين .. لمَ نحمِّل أنفسنا مالا نطيق ونرهق كاهلنا بما لا نستطيع لِمَ نجزم دائماً أننا نستطيع أن نضحي ونقـاوم ونبـذل ولا نأخذ بعين الاعتبـار أن ثمة لحظة قد تخور فيها قوانا؟

طرقـت مسـامعه في تلـك اللحظـة عبارتها التـي كتبتها لـه آخر مرة حين سـألها عن حبهـا له قائلـه : "أحببتني بقلبك فأحببتك بكل جوارحي" . آه يا ثريا .. ماذا أفعل .. كيف لي أن أراكِ دون أن أبكي .. دون أن أخبركِ أنني قد هزمت وهزيمتي أنـتِ والجـرح والحـب أنتِ كيف لـي أن أحدثـكِ أن قلبي قد ضاع مني كيف لي أن أخبركِ أنني استسـلمت أنني خذلتكِ .. كيـف لي أن أنظر في عينيكِ ولا أقـول عبارتي التي تخجلك دائمـاً : "عينـاك مجرتـي وأنـا التائه فيهـا" . أين أخبـئ حنيني ولهفتي وشـوقي ووجدي لكِ .. أين؟ وأنا رفعت رايتي البيضاء .. لم أعد أرغب في شـيء .. فقدت الإحساس والمشاعر كيف؟ ولمـاذا؟ لِـمَ؟ لا أدري! أهذه هي الأيام التي كنت أراهن عليها

أنهـا سـتكون أجمـل أيامـي.. ها هي قد سـرقت منـي أغلى مـا أملـك.. وها أنـا أصبحت جسـداً دون قلب! هـل هذا كله حلم؟ أهو حقيقة أم مجرد خدعة، لأبتعد عنكِ؟ أمسـك رأسه بكلتـا يديه والعرق يتصبب مـن جبينه.. لم ينم فهد تلك الليلة حتـى صدح صـوت الأذان.. ولجـت هند غرفتهـا أغلقت الباب واجتاحتهـا.. نوبة بكاء شـديدة.. احتضنت وسـادتها الناعمة ذات اللون القرمزي.. فبللتها بدموعها.. لم تبكِ ثريا لأنها لقيطة كانت تبكي فهد الذي رأته كطفلٍ وحيد شريد، يحدق في المـارة لعل أحدهم يمسـك بيده ويعيده إلـى حضن أمه.. نامت بعد تلك الليلة الكئيبة.. كانت تمتم بصوت بالكاد يسـمع: "أنا أحلم.. نعم أحلم.. سأستيقظ في الصباح غداً.. وأحمد الله أنه حلم"

دلف شـعاع الصباح عبر النافذة.. وداعب خصلات شـعرها فتحت عينيها، شـعرت بصداع في رأسـها أمسـكت رأسـها بكلتـا يديها رفعت، وسـادتها لتسـند رأسـها عليهـا.. لمحت ظرفـاً تحت المخـدة تناولتـه كان فيه ورقـة مفتوحة وظرف مغلـق.. انتفضت من مكانها فتحت الورقة ويداها ترتعشـان: "هنـد حبيبتـي اعتنـي بوالديـك جيـداً.. أعذريني لم أسـتطع أن أودعـكِ ولا أن أودعهـم.. لـم أقوَ على ذلك.. أنا مسـافر.. لا أدري إلى أين لكنني سأسـافر ولا أدري أين وجهتي.. أوصلي

رسالتي لثريا.. السلام عليكم"

نزلت الدرج بسـرعة وصراخها يسـبقها.. خـرج أبو فهد من غرفته:

ـ هند ما بكِ؟ ماذا حدث؟

هند بصوت متقطع:

ـ فهد.. فهد..

وخنقتهـا العبـرة دون أن تفصـح عـن الكلام تسـللت تلك الكلمات إلى مسامع حبيبة انتفضت من فراشها وهي تصرخ:

ـ ولدي ولدي ماذا به؟

هند والدموع تسح على خديها:

ـ فهد غادر البلاد يا أمي ترك لكما البيت وغادر.

جثت حبيبة على ركبتيهـا وهي تبكي وتضرب بذراعيها على فخذيها:

ـ يتركنـا من أجـل لقيطة.. ليتني مت ولـم أعِش إلى هذا اليوم.

جلس أبو فهد على الأريكة قبالة حبيبة طوفان الدموع في عينيه يفيض حاول عبثا أن يرده:

ـ سـامحك الله ياحبيبة قلت لك دعيه يعش حياته لكنكِ عنيـدة وكلامـكِ لابـد أن ينفـذ، أنانية لا تحبين إلا نفسـكِ

أفشيتِ سراً لطالما تعاهدنا ألا يعرفه أحد انكشف السر، وخسرنا ولدنا.

زعقت في وجهه:

ـ أترضى له أن يتزوجها وهي لقيطة أتريد أن يأتيك أحفاد ليس لهم نسب يتفاخرون به

يترك سهى ذات النسب التي يتمناها الجميع

رد أبو فهد بنبرة حادة سمع لها صدى:

ـ اصمتي يكفي كلاماً.. دعينا نفكر في حل ليعود فهد إلينا.

أردفت حبيبة بنبرة حازمة:

ـ فهد عنيد إذا أراد شيئا لا يتنازل عنه أبداً.. وأنا لن أقبل بما يريد مهما فعل.

هند وهي تكفكف دموعها:

ـ أماه ارفقي بفهد وثريا أنتِ لا تعرفين تعلقهما ببعض. لِمَ تحملينها خطأً لم تقترفه؟ مادام أنه سر ليبقى سراً.

ردت حبيبة بغضب:

ـ أنتِ السبب في قربه وحبه لها.. كان باستطاعتكِ أن تعلقيه بسهى بكلامكِ عنها بحبكِ لها.

ردت هند بصوت هادئ وحزين:

ـ أمـاه، لم لا تفهمين أن سـهى أنانيـة مغرورة، لا تحب إلا نفسـها شـتان بينها وبين ثريا.. الفرق شاسع يا أمي.. وهل يبلغ الثرى الثريا؟!

حبيبة وهي مغتاظة:

ـ اغربي عن وجهي لا أريد أن أراكِ.. لا أحد يسمع كلامي تعبت منكم.

الفصل الرابع

(1)

رسالة

تحينت هند الفرصة لتوصل الرسالة لثريا لكنها لم تجد الوقت المناسب.. مر أسبوع على سفر فهد لم تفتح نافذته التي اعتادت ثريا أن يطل كل صباح منها ليطمئن عليها وتتسلل نسمات حبه لها و تعانق شغاف قلبها.. لم ترَ سيارته.. اتصلت بهاتفه فإذا هو مغلق انتابها القلق، حاولت الاتصال بهند مرة، مرتين، وثلاث يظهر عند هند في شاشة الهاتف "ثريتي يتصل بك" تنظر هند لهاتفها لكنها لم تستطع أن تفتحه وترد عليها تأوهت: "أدري أنك قلقة على فهد.. آه يا ثريتي.. ماذا تخبئ لك الأيام.. ماذا أقول لكِ وبأي العبارات أخبركِ.. ماذا سأحدثكِ.. سأكتم عنكِ كل ما سمعت لكن كيف؟ وأنت تقرأين بوحي في عيونَي لا أستطع أن أخبئ عنك شيئاً.. أبوح لكُ بكل أسراري هل أستطيع أن أخبركُ أن فهداً غادر ولا أدري إلى أين؟ ماذا سأقول لكِ بأي عبارة سأوجز لكِ كلما حدث ليتني أستطيع أن أفعل أي شيء لأبعد به هذا الحزن والهم الذي يزحف نحوكِ لا أجيد الكلام لست لهذه المواقف بأهل".

أغلقـت هند هاتفها ووضعت رأسـها على ذراعيها حائرة لا تـدري ماذا تفعل لكنها عزمـت على الذهاب إلى ثريا لتوصل لها الرسـالة فقط دون الدخول في التفاصيل وصلت هند بيت ثريـا ، وكمـا هي عادتها سـلمت علـى أم أحمـد فرحبت بها وهللـت.. دلفت هند إلى غرفة ثريـا كان الوقت قبيل المغرب فرحت ثريا بهند ، وعانقتها.

ـ قلقت عليكِ اتصلت بكِ فلم تردي. (قالت ثريا)

ـ كنت متعبة. (ردت هند)

ثريا وهي تحدق بهند :

ـ ملامحـك تتحـدث بصمـت.. افصحـي ماذا هنـاك؟ أين فهد؟! مضى أسبوع لم أره.. لا رسالة ولا اتصال.

صمتت هند ولم تجِب

ـ في عينيك ذبول لا أدري ما سببه.

انفجرت هند باكية.. فزاد قلق ثريا وزادت مخاوفها

ثريا بنبرة قلقه:

ـ أرجوكِ اهدئي وحدثيني عن سبب بكائكِ.

هند بصوت متهدج:

ـ فهد يا ثريا...

قاطعتها ثريا ، وقد اتسعت أحداق عينيها :

ـ ما به.. أهو مريض؟

تسارعت نبضات قلبها ، وضاق نفسها هند ، والدموع تتهمر على وجنتيها :

ـ ليته مريض.. فهد سافر وتركنا.

ثريا مفزوعة :

ـ سافر!! إلى أين؟ ولماذا؟ لم يتحدث عن السفر قط؟ هند أرجوكِ أفصحي يكاد رأسي ينفجر.

أخرجت هند الظرف من جيبها ووضعته في يد ثريا.. ثريا مشدوهة :

ـ ما هذا؟

هند وهي تكفكف دموعها :

ـ رسالة من فهد.. اقرئيها ربما تفهمين كل شيء.

جلست ثريا وبدأت تفتح ظرف الرسالة.. يداها ترتعشان، لا تسمع إلا ضربات قلبها.. فتحت الرسالة وقرأت: "أمسكت القلم لأكتب حروفي هذه فسقط القلم من بين أناملي حاولت مرة، ومرتين، وثلاثا.. وحين أردت الكتابة أضعت حروف أبجديتي.. وصرت عاجزاً حتى عن كتابة عبارة واحدة.. ربما لأنها حروفي الأخيرة.. حروف وداع.. شيعت حباً عجزت أن أحافظ عليه قلت لكِ ذات مرة: لن تستطيع الدنيا أن تقف

أمامي ولا شـيء سـوف يبعدني عنكِ.. أنا لا أؤمن بالفراق بين العاشقين.. لا أؤمن بالخذلان.. ولا الظروف التي تكون مبرراً بـأن تفلـت أيدي المتحابيـن.. خبئتكِ في شـغاف القلب واليوم ذلك الشـغاف مُزِق فأين أخبئكِ.. كنـتِ لمباهج مقلتي نوراً.. اليوم انطفأت تلك المباهج.. تائه لست أدري أين الطريق.. وأي درب سوف أسلك.. تركت كل شيء ما عدت أرغب بحياة لا تشاركينني فيها.. كنت أظن أني أقوى من كل شيء.. أقوى مـن الظروف.. مـن الصعاب.. كنـت أظن أنني فـارس مقدام قـد اعتلى صهوة الهـوى وجال في ميادينـه وهـأنذا قد ترجلت مـن على صهوته وانكسـر ظهري.. لسـت جبانـاً.. ولا خائناً.. لكـنَّ سـهماً أطلق وأصـاب خاصرتي فأرديـت.. فأنا الجريح التائه الأسير المهزوم.. الهارب إلى اللامكان وإلى اللاشيء.. سـتقرئين حروفي وأثق أنك لن تفهميها الآن.. ستفهمينها فيما بعـد حين تجدين نفسـك تائهـة مثلي وتبحثين عن نفسـك فلا تجدينها.. كوني قوية.. فأنا خذلتكِ.. لأن الخذلان أنتِ سببه.. وليس لكِ ذنبٌ فيه... والسلام ختامَ".

سـقطت الورقـة من بيـن يديها أمسـكت برأسـها جمعت أنفاسها

جثت أمام هند:

ـ أرجوكِ قولي لي ماذا يقصد فهد بكلامه هذا؟ لم أفهم

شـيئاً؟ شـتّت حروفه ذهني.. يتحدث عن الخذلان وأنا سـببه.. كيف ذلك؟! تعاهدنا على الصدق فاصدقيني القول.

غطت هند وجهها بكلتا يديها وهي تبكي:

ـ أرجـوكِ ثريا ارحميني.. منذُ أسـبوع لـم أذُق طعم الراحة والسهد رفيقي كل ليلة.. فهد غادر لأنه لم يستطع أن يحافظ علـى حبـكِ.. أمـي لا تريـدكِ.. نعم، يـا ثريا لا تريـدكِ، وأنت تعرفين ذلك..

ثريا وقد جلست بجوار هند:

ـ لا أظن ذلك سبباً يجعله يغادر.. قال لي أنه لن يمنعه عني أحـد مهما حدث.. قال لـي أن حياته معي ودوني لا يريد حياة.. في رسـالته نبرة حادة لم أعهدها من قبل اسـتفهامات كثيرة لم أجد لها جواباً أقسم لكِ يا هند إن لم تخبريني ماذا تخبئين عني لن تري وجهي بعد اليوم أبداً

طأطأت هند برأسها وبعد برهة ردت:

ـ حسناً سأخبركِ.. ثريا هل أنتِ ابنة العم صالح؟

ـ نعم.. وهل يوجد لي أب آخر؟!

ـ أمي تقول غير ذلك

ثريا وقد اتسعت عيناها ورفعت حاجبيها وهي تنظر لهند:

ـ ماذا تقول أمكِ يا هند؟

هند بصوت حزين:

ـ لا أدري ربمـا حيلـة أرادت أمـي أن تفعلهـا لكـي تفرق بينكِ، وبين فهد ولكن والدي أكد الأمر.

ثريا بصوت مخنوق:

ـ حيلة ماذا؟ وما الأمر الذي أكده والدك؟

هند وهي تحبس عبرتها: أنكِ....أنكِ..

ـ ثريا وهي تمسك بكتفي هند وتهزها أنني ماذا؟

هند بصوت متقطع:

ـ أنك لقيطة!!!

ردت ثريا بصوت حاد:

ـ لقيطة!!!...من؟...أنا!! بماذا تهذين يا هند؟

وقفت ثريا، وهي تمسك برأسها وصرخت رأسي رأسي ثم سقطت على الأرض..

هند وهي ترتجف:

ـ ثريا.. ثريا انهضي أرجوكِ

صرخت هند..

ـ يا خالة أدركيني ثريا أغمي عليها.

ركضت أم أحمد:

ـ ثريا افتحي عينيك.

وأخـذت تصب المـاء على وجههـا.. كان صالح في غرفته انتفـض وهو يسـمع صوت أم أحمد ظـنّ أنَّ محمداً قد وقع له شـيء وحين رأى ثريا مرمية على الأرض كاد يسـقط عليها.. حُملت ثريا إلى المشفى وأدخلت قسم العناية وقف صالح على باب العناية وبعد ساعتين خرج الطبيب.

ـ أرجوك أيها الطبيب طمئني عنها.

ـ أهي ابنتك!

ـ نعم..

ـ الفتـاة تعرضـت لصدمـة عصبيـة ادعُ لهـا أن تنجو منها بسلام

كانت فاجعة لصالح أصابه الدوار ولفّ المكان به:

ـ صدمة عصبية! من ماذا؟! ماذا حدث؟! ماذا سمعت حتى تحدث لها هذه الصدمة؟!

جـاء عمر وأحمـد لرؤيتهـا فأخبرهم صالح أنهـا في حالة حرجة أسـند صالح ظهره على أحد جدران المشـفى وافترش الأرض غارقا في بحر من التساؤلات:

ـ صدمـة عصبيـة!! كيـف ذلك؟ مـاذا يحدث؟ لـم تغادر المنزل، وعادت من العيادة، والابتسامة تملأ وجهها.

تذكـر صالـح في تلـك اللحظة هنـد ، وتذكـر صراخها وكيف كانت تبكي.. غادر صالح المشـفى وذهب إلى بيت هنـد طرق البـاب بقوة، كان الوقـت متأخراً.. خـرج أبو فهد حينما رأى صالح وقف مشدوها :

ـ أهلا جاري العزيز. خيراً ماذا هناك؟

كان صوته مشحونا بأسى لا يصدق:

ـ أين هند؟

ـ في غرفتها..

ـ أريدها..

أبو فهد بصوت يملؤه القلق:

ـ أقلقتني ماذا حدث؟

ـ أرجوك نادِها وستفهم بعد ذلك..

ذهـب أبو فهـد على عجل وطرق باب غرفة هند التي لم تنم قط

وحيـن أخبرهـا أن العـم صالـح يريدها فزّعـت، وهرولت مسرعة

جلـس صالـح في الحديقـة خرجت هند ، وأبوهـا إليه هند بعينين ذابلتين ونبرة حزينة :

ـ طمئني يا عم عن ثريا أهي بخير؟

نظر صالح إلى هند بصمت ثم قال بصوت هادئ:

ـ هند، ماذا حدث لثريا؟ ما سبب الصدمة العصبية التي تعرضت لها؟

هند وهي ترتجف:

ـ الآن كيف هي؟

صالح بصوت يملؤه الأسى:

ـ في حالة حرجة.. هناك شيء ما سمعته ثريا تسبب في انهيارها.. قولي تكلمي يا ابنتي لا تخافي أريحيني.. يكاد عقلي يطير مني.

هند وهي تعصر أناملها:

ـ أخبرتها أن فهداً غادر.. فحصل لها ما حصل.

صالح بنبرة حادة:

ـ وما علاقة ابنتي بفهد؟

قاطعه أبو فهد:

ـ اسمع يا صالح ثريا، وفهد بينهما قصة حب منذ الطفولة حب عفيف وعلاقة لم تشبها رذيلة كلاهما كتوم، ومتحفظ عن الجميع ألحت حبيبة على فهد تريده أن يتزوج بسهى ابنة خالته فرفض وأخبرها عن حبه لثريا، فرفضتها فما كان من فهد إلا أن تركنا، وسافر.

صالح، وهو يطلق زفرة حارة:

ـ آآآه.. حافظـت عليها لكنني لم أسـتطع أن أحافظ على قلبها فهي تملكه، ليتها حدثتني عن هذا الحب لأبعدها عنه فأنا أعي أنها لا تناسبه.

ـ يا عم هل صحيح أن ثريا ليست ابنتك؟! (قالت هند)

صالح وقد احمرَّ وجهه وتدفق الدم إلى وجنتيه:

ـ من قال هذا؟

هند كفي عن هذا الكلام. (قال أبو فهد)

هند وهي تشحج بصوتها:

ـ أريد أن ارتاح دعوني أخبر ثريا أن الكلام مجرد خدعة.. أنه خزعبلات فقط دعوني أخبرها أنكم كذبتم من أجل أن يبتعد عنها فهد.

ـ هند هل عرفت ثريا بهذا الكلام؟ (رد صالح)

قرأت رسالة فهد.. ثم توسلت إليَّ وأقسمت عليّ فحدثتها.

أردف صالح بنبرة حادة:

ـ حدثتها عن ماذا؟

ـ بما سمعت.

اتـكأ صالـح علـى أحدى يديـه وهـوى بثقل جسـده على الكرسي الوتير.. غامت عيناه وسقط قلبه بين قدميه.. صدره

يلهث ويطلق زفرات متتابعة.. ساد الصمت.. كومة من الدموع حبسها بين أحداقه وخنقته العبرة وجاء ذلك اليوم الذي أرّقه، وكان يظنُّ أنَّ سرها بين اثنين اللّه ثالثهما.. استدار صالح نحو أبي فهد:

ـ قل لي كيف عرفت حبيبة بهذا السر.. كيف؟!

أبو فهد وقد طأطأ راسه:

اسمعني يا صالح واسمع القصة: "في ذلك اليوم الذي وجدتُّ فيه ثريا خرجت أول المصلين وعندما حاذيت بوابة المسجد لمحت شخصاً متخفياً كأنه يمشي على أطراف أصابعه، وحينما رآني ركض فشدَّ انتباهي فتبعته وفي زاوية المسجد المحاذية للشارع وضع شيئاً ما وحينما رآني قفز السور، وهرب فتحت الصندوق، وإذ بداخله طفل، فاقشعر بدني وارتجفت غطيته وخرجت أبحث عنه وطفت حول المسجد وذهبت إلى أقصى الشارع ركضت وتعبت استرحت وقد بدأ شفق الصبح يطلع تذكرت الطفل، فعدت مسرعاً سمعت صوت البكاء ومشيت نحو الطفل فرأيت أحدهم واقفاً أمامه فاختبأت لم أرَ ملامحه لأنني كنت خلفه فحمل الصندوق، وأنا اتبعه حتى وصل بيته وكنت أنت من حمل الصندوق عدت للمنزل متأخراً، فوجدت حبيبة واقفة عند الباب مغتاظة ظنت فيَّ السوء فما كان مني إلا أن حكيت

لها القصة وحينما عرفنا أنها بنت وأنك أخفيت سرها تعاهدنا أن نكتم السر"

صالح بصوت ممزوج بخيبة :

ـ ليتكم ماكتمتوه.. ليتكم تحدثتم لأكون قد أدركت مـا كنت أتوجـس منه ، وأظنه لن يحدث أبداً.. أنتم قتلتم ثريا .. تشـاركتم في قتلهـا الحبيب والصديق ومـن كانت تراهم أعزُّ جيرانها..

أبو فهد ، وقد أطرق رأسه إلى الأرض:

ـ أتوسـل إليك لا تكثر من اللوم، فنحن قد خسرنا ولدنا الوحيد

ـ أضعتم ثريا فضاع ولدكم.

مشـى صالـح ، فتـح الباب ثم اسـتدار قليلا وأطلـق نظرته الحاقدة وبنبرة مشحونة بتهديد :

ـ أقسم لك إن حدث لها مكروه لن أسامحكم ما حييت.

دخل صالح وهو يحسبل..

ـ طمئني كيف هي ثريا؟

ـ ضاعـت منّـا ما كنا نخشـاه وقع.. وقع المحـذور، يا أم أحمد

أم أحمد وهي تحدق به: لم أفهم عن ماذا تتحدث!!

رد صالح وهو يحاول جاهدا حبس عبرته:

ـ السر الذي كتمناه سنينا كشف اليوم.

أم أحمد مفزوعة:

ـ ماذا؟ لا أحد يعرفه إلا أنا وأنت كيف ذلك؟!

قصّ صالح لأم أحمد قصة أبي فهد.. فانهمرت دموعها كالمطر وضربت كفها بكفها الآخر:

ـ انطفأت شمعة الدار.

(2)

من أنا؟

بعـد يومين أُخرجت ثريا مـن العناية إلى غرفة خاصة تحت إشـراف الطبيب، وسمح بزيارة خفيفة.. تلهف صالح لرؤيتها، ودخـل عليها كانت حالتها مسـتقرة.. اقترب منها وقبلها على جبينهـا، وأخذ يحدق بها يحدق بذلك الوجه الشـاحب وبتلك الأهـداب المبللة بالدمـوع.. كانت ممددة على سـريرٍ رمادي اللون مغطاة إلى نصفها بقماش أبيض

تمتم صالح:

ـ يـا نـور داري مـن الـذي أطفأك؟ يـا نجمتي هل سـيبزغ ضـوؤك من جديـد.. أضعف حينما تتعبيـن.. كيف أقوى على أن أراكِ ذابلة.. قد سرق الحزن بسمتكِ.. وأقام مآتم عزاء على ضفـافَ ثغرك.. كيـف أحبس عبرتيَ إن رأيـت عينيك تذرف الدمـوع.. ظننـت أنني حافظت عليـكِ.. ونسـيت أنني حافظت على بعضك وبعضك أنت تملكينه.

خـرج ، والدمـوع تسـيح علـى خديـه.. أخبره الطبيـب أنها سـتظل تحـت العنايـة، فالصدمـة قويـة تحتـاج لمراقبة دلف

أحمـد ، وعمـر ، ومحمد لزيارتها جلس بالقـرب منها محمد ، وأمسك يدها.

ـ ثريا غرفتي لم أسـتطع ترتيبها.. والعسـل الذي تقدمينه لـي كل صبـاح قبـل أن تذهبـي إلـى العيـادة ، وتلزميننـي أن أشـربه من أجل صحتي ، وتغضبين إن تكاسـلت في شربه لم أعد أشتهيه كل ليلة أشعر بكِ وأنتُ تتفقدينني وتضعين يدكِ على ناصيتي خوفـاً أن تكون حرارتي مرتفعة فينخفض دمي أغمض عيني ، وحينما تخرجين أبتسم وأدعو لكِ.. ثريا كوني قويـة.. دائما ما تقولين لي: "المرض ليس في الجسـد المرض في أننا نقنع أنفسنا أنَّ أجسادنا لا تستطيع أن تقاومه"

فتحـت ثريا عينيهـا وكأن همس محمـد أيقظها.. رقصت ابتسامة على شفتيه:

ـ ثريا فتحت عينيها لقد استيقظت.. الحمد للّه أنكِ بخير.

جلس عمر ، وأحمد بجوارها.

عمر مبتسما:

ـ الحمد للّه على سلامتك.

أحمد وهو يضع يده على رأسها:

ـ سلامتكِ ، يا غالية.

حدَّقت بهما بصوت يكاد لا يسمع:

ـ أين أنا؟

وهمت بالنهوض.. كانت تقرع مسامعها تلك الكلمة التي لـم تجـد لها تفسـيرا كلمة سـحبت بسـاط الحيـاة من تحت قدميها "لقيطة" تذكرت رسـالة فهد.. كلام هند.. كل ذلك الشـريط مرَّ أمامها في تلك اللحظة رمت بها تلك الكلمة إلى مكان مجهول ودهاليز تاهت فيها

ـ أنت في المشـفى وسـتعودين للبيت قريبـاً. (قال أحمد) عمر الصغير يفتقدكِ.

ردت بنبرة ممزوجة بحشرجة:

ـ أين أبي؟ ..أريد أبي..

دخل الطبيب.. الطبيب غاضباً:

ـ المريضة تحتاج للراحة اتركوها الآن.

خرجـوا وبقـي الطبيب طرق صالـح باب الغرفـة حين علم أنها تريده.. أوصاه الطبيب أن لا يتحدث معها كثيراً لأن ذلك سـيؤثر على صحتها.. دخل صالح بهدوء.. جلس صالح بالقرب منهـا.. كانـت عيناها تتأمل سـقف الغرفة.. وتلـك المصابيح التـي تضـيء بخجل جـدران الغرفـة ذات لون رمادي، سـتائر رمادية اللون، أجهزة تحيط بها.. لم تنتبه لوجوده صالح بصوت دافئ:

ـ ألف سلامة عليكِ، يا مهجة القلب.

انتبهت ثريا ونظرت إليه كانت نظراتها مشحونة بعتب:

ـ كنت أظن أن جميعهم يكذبون؛ إلا أنت يا أبي. كنت أظن أن جميعهم مخادعون؛ إلا أنت يا أبي.. هل سأناديك بعد اليوم أبي أم العم صالح؟ هل أستطيع أن أضع رأسي على صدرك كما عودتني حين أبكي، أم أن ذلك الصدر لم يعد يصلح لي هل سيناديني الناس ابنة صالح أم ثريا فقط!

رد صالح وهو يكابد عبرته:

ـ يكفي لا تقتليني، يا ابنتي.. أنا أبوكُ، وسأظل كذلك ما حييت.

أردفت ثريا بصوت حزين:

ـ من أنا؟ أصحيح أنني لقيطة؟! أرجوكِ اصدقني القول.

ـ أنتِ ابنتي التي وضعتها في أحداق عيني.. فرشت لها عمري لتمشي عليه.. أنا أبوكِ الذي سهر من أجل أن تنامي.. أنتِ أمانة حملتها وعاهدت الله أن احافظ عليها ما حييت.. أنتِ ذلك السر الذي كتمته سنين وكنت أظن أنه لن يعرفه أحد لكن شاء الله وحدث ما حدث..

ردت ثريا ودموعها تنهمر:

ـ لقيطة أنا، وجدتني بالقرب من المسجد أليس كذلك؟

اقترب صالح منها وأمسكها بيديها:

ـ دعيكِ من هذا الكلام الآن اعدكِ حينما تكونين بخير سنتحدث..

قاطعته ثريا بنبرة متهدجة:

ـ أرجوك.. أرحني يكاد رأسي ينفجر

صمت صالح برهة ثم أجابها:

ـ نعـم، لكنـكِ ابنتي.. أم احمد أرضعتـك وصرت أباك، أبوك أنا الذي أنتِ أحدى عينيه.

جفت مدامعها، من يعيرها عينين تبكي بهما.. فلا تنضب ينابيع الدموع، إلا حين تكف الحياة عن نبضها.. حين يصبح كل شـيء نعرفه يتنكر لنا، يبتعد عنـا، يصنع حاجزا بيننا وبينـه تأملته بعينين يملؤها الأسـى ثم قالـت بصوت مخذول: لمـاذا أخذتني؟ لِمَ لم ترمني للـكلاب؟ لِمَ جعلتني أعيش إلى هـذه اللحظة؟ ليتني مـت.. ليتني مت.. أسـميتني ثريا.. والثرى كان أحـق بـي.. عـلا نحيبهـا وتسـارعت زفراتهـا.. فصارت تتنفس بصعوبة

صاح صالح:

ـ أدركوني، إنها تختنق.

ركضـت الممرضة ووضعـت لها جهاز الأكسـجين فقد

ساءت حالتها زجر الطبيب صالح حين رأى حالتها خرج صالح يتكئ على حائط المشفى، ودموعه تسقط بغزارة اتصل به الطبيب سامر يسأل عن تغيب ثريا عن العيادة أخبره أنها ترقد في مستشفى المدينة، وحالتها حرجة، وبكى صالح دون أن يكمل المكالمة ساعات ووصل الطبيب سامر سلم على صالح وسأله عن حالتها، وما السبب في مرضها:

ـ كنت قد خبأت عنها سرا مرت عليه سنون وظننت أنه مات، وفجأة دبت الحياة فيه وعاد حيا يرزق.

كان سامر يستمع إليه لكنه لم يفهم ذلك اللغز المبهم:

ـ يا عم لم أفهم شيئاً! ما السر وما شأن ثريا به؟

هز صالح رأسه وبصوت متعب:

ـ ثريا ليست ابنتي.

وكأن غصنا معقوفا علق في حلق سامر كلما أراد أن يتكلم ما استطاع وبعد برهة رد:

ـ ابنة من إذن؟

أردف بعد زفرة كادت تحرق شفتيه:

ـ ابنة قريب لي لقي حتفه هو وزوجته ولم يكن له أقارب هنا إلا أنا.

شعر سامر بوخز في صدره وشيء ما يكتم أنفاسه،

همس بينه وبين نفسه:

ـ نجمة تلألأت في سمائي، وحينما مددت يدي لها أفلتت...

حاول سامر أن يطمئن صالح بأنه سوف يشرف عليها ذهب سـامر، وجلس مع الطبيب المشـرف عليها وسأله عن حالتها فأخبـره الطبيب أن الصدمة قوية، وقد لا تخرج منها بسـهولة دخـل عليهـا، وجهاز الأكسـجين علـى أنفها فلم يسـتطع أن ينظر إليها شـعر بضيق كاد يخنقه مرَّ أسـبوع وثريا ما زالت في المشفى تحسنت حالتها واستقرت لكنها لا تتكلم مرض صالـح، ورقد في الغرفة التي ترقد فيها.. فقد ارتفع ضغطه، وعانى من نوبة صداع مزمنة.. زاره سـامر.. وأشـفق على حاله فقـد كان متعبـا. اقترب سـامر مـن ثريا فقد كانت شـاردة الذهن، صامتة، همس لها:

ـ لـم أعرفكِ ضعيفة.. أنتِ من نسـتمد منك القوة.. كوني قوية من أجل أبيكِ انظري إليه.. لا تعذبيه لا تحمليه فوق طاقته.. ارفقي بنفسكِ وبه.. ثريا نحن بحاجتكِ.. بحاجة كلماتك التي تبثُّ فينا الأمل، ما عهدناكِ يائسة.

هزت ثريا رأسـها.. فتبسـم سـامر ثم ودعهـا وانصرف في الصباح اسـتيقظت من فراشها وجلسـت بجوار أبيها كزهرة ياسـمين سـقطت في غير أوانها تأملته طويـلاً.. وضعت يدها على جبينه ففتح عينيه ثم أغمضهما ظن ذلك حلما وحين شعر

بدفء يدها انتفض مستبشرا:

ـ أشرقت شمسي.. اللهم لك الحمد.

تبسمت ابتسامة باهتة، سرق بهاؤها.

(3)

بقايا قلب

غـادرت ثريـا المشـفى بصحبـة أبيهـا ، والطبيـب سـامر والجميع. كانت تكاليف المشـفى باهظـة ، لكنها كانت في نظر صالح لا شـيء ، مقابل سـلامة ابنته. عـادت ثريا إلى المنـزل ، الـكل كان فرحـاً بعودتهـا. احتضنتهـا أم أحمد ، وهي تبكي:

ـ الحمد لله على سلامتكِ يا ابنتي.

حمل أحمد ، عمر الصغير ، الذي صار عمره ثمانية أشـهر ووضعه في حضنها.

أم عمر بصوت حنون:

ـ عاد النور إلى البيت بعودتكِ "يا نور الدار".

ردت ثريا بنبرة يخنقها الأسى:

ـ أنتم نوره وضياؤه.

التـفّ الجميـع حولهـا ، ولكـن ثريـا لـم تعـد تلـك الفتاة المرحة ، التي تزين ابتسامتها الساحرة وجهها.

ليست ثريا البشوش، التي تبث الفرح في قلوب الجميع. تسرح عيناها في أرجاء المنزل، وكأنها تراه لأول مرة.. كل شيء بدا لها غريبا. تملكها الشعور بالوحدة والغربة، على الرغم من أن الجميع حولها. تنهدت بعمق، وشقت تلك التنهيدة طريقها، حاملة معها أكواما من الآهات:

ـ أوآه .. أيّ أمّ، هذه التي ترمي طفلتها! وتحمّلها خطيئتها مدى الحياة!؟ ترى أهي حقا خطيئة، وثمرة فاسدة من ثمار الحب الذي انتحر على أبوابه العفاف؟ ويح قلبي.. سأظل خطيئة ذلك الحب الذي بيع بثمن بخس. حُمِّلتُ شيئا، لم تقترفه يداي يا الله كن معي، فحبال قوتي تمزقت، مُدّني بحبال قوتك أمواج الخضم، هائجة، ومركبي مسجور كن لي يا الله، وكن معي فليس لي سواك.

لزمت غرفتها، شهراً كاملاً، كان صالح، يسترق النظر إليها فيراها كعصفورة قابعة خلف قضبان قفص. قمر.. تزاحمت الغيوم حوله، وحجبت ضوءه. جاء الطبيب سامر، ليطمئن على صحتها، فقال له صالح بنبرة حزينة:

ـ ليتها تعود إلى العيادة، لعلها تخرج من جو الكآبة، والحزن الذي هي حبيسته.

الطبيب سامر مبتسما:

ـ وهذا الذي جئت من أجله. أريدها أن تعود إلى العيادة،

وبأسرع وقت.

صالح وهو يهز رأسه بأسى:

ـ حدثتها عن العيادة أشـاحت بوجهها عني، ورجتني أن لا أفتح معها هذا الموضوع مرة أخرى، فصمتُّ.

ـ نادها يا عم أريدها.

دخل صالح على ثريا، وأخبرها أن الطبيب يريدها ليطمئن عليها.

وبعد برهة، دخلت ثريا، ومعها والدها على الطبيب.

سامر مستبشرا:

ـ ما شاء الله، صرتِ أحسن. الحمد لله أنكِ بخير. العيادة تنتظـركِ، والمرضـى بحاجتـكِ "يـا فراشـة العيـادة". وكأن الكلام، مات على شفتيها.

كان يتأملها، قال في نفسه:

ـ تحت عينيها، أقيمت مراسم عزاء، وعلى وجنتيها، شيع الفرح.. وعلى عتبة ثغرها، ماتت أعذب العبارات، وبعد إلحاح الطبيـب، وعزمـه أنه سـيغلق العيـادة مالم تعـد إليها، هزت رأسها بصمت.

سامر راجيا:

ـ ثريـا العيادة تنتظركِ، والمرضـى بحاجتكِ، فلا تدعي

الحزن يسرق منكِ، أجمل ما تملكين، حب عملكِ، وحب الناس لكِ، غداً سأنتظركِ في العيادة.

ردت ثريا، بصوت بالكاد يسمع:

ـ سأحاول.

سامر، مصراً:

ـ العيادة أنتِ من يفتحها غدا.

ـ إن شاء الله.

استبشر صالح، بموافقتها، وشكر الطبيب على إصراره على عودتها للعيادة. عودة ثريا للعيادة، عودتها للحياة من جديد.

في الصباح، كان سامر في انتظارها...عادت ثريا إلى العيادة، بابتسامة متصنعة، وبروح مكسورة. استقبلتها هدى، بكل حرارة، واعتذرت، عن تقصيرها معها، لأنها كانت، مشغولة بمرض أمها. استقبلها سامر، بباقة ورد. سامر مبتسما فرحا:

ـ الحمد لله، عادت الروح إلى العيادة، وعادت فراشتها.

نظرت إليه هدى، وهي تحرك شفتيها يمنة ويسرى غير راضية عن كلامه. زاولت ثريا عملها، وهي كما هي، تحاول أن تقاوم، أن تخبئ بعثرتها، وأن تبدو بكامل هيئتها.

ابتسـامة باهتـة، ترتسـم علـى محياها، تصارع الأسـى الذي أحكم قبضته على أنفاسها.

مـر عـام، على سـفر فهد ،ومرضـت أمه مرضا شـديدا، وصـارت تهـذي باسـمه ليـل نهـار. كان فهد، قد سـافر إلى بريطانيـا، حيـث يقطن خاله، فبعد شـهور من سـفره، أخبر والـده بذلـك. سـافرت هنـد، ووالداهـا إلـى بريطانيـا، فما اسـتطاعوا تحمل فراقه أكثر. بعد عام، تزوجت هند من ابن خالهـا، هنـاك، وعاد أبو فهد وزوجته. عاد فهد بعد سـنتين، لتكون المفاجأة، خطوبته من سـهى، وحُدد موعد الزفاف، بعد أسابيع من عودته.

تلك الأخبار، وصلت إلى مسـامع ثريا بصمت، كالسـهام اخترقت نياط قلبها، فتركت خلفها جرحا ينزف. في غمضة عين، ضاع منها كل شيء، كانت تحدث نفسها، لعله يعود، لعله يسـتعيد قوتـه.. لعله يغيب، ويعود إلـى حضن ذلك الحب الذي يرتجف بعد تلك العاصفة الثلجية، التي رمت به في كوخ مهجور. ينتظره لينتشـله من هناك، ويعود به إلى روابيه حيث نشـأ وترعرع. تخلـى عنها، من كان بالنسـبة لهـا الكتف، الذي تتكئ عليه وتثق أنه لا يميل، ولا يسقط، سقط بنسمة هواء عابرة. ذلك الفارس، الذي عاهدها أنه سـيحارب الدنيا مـن أجلها، رفع رايتـه البيضاء فـي أول المعركة، كان لها

كل شيء.. تنام، على همس صوته، وتحتضن طيفه كل ليلة.. خذلها.. تركها في منتصف الطريق، وحدها.. كيف ستغفر له ذلك؟ كيف؟ وتلك الرفيقة، التي عاهدتها أنها ستبقى بجوارها، ومعها إلى الأبد، قد أفلتت يدها منها، وهي في أمس الحاجة إليها. عند المواقف.. نعرف معادن الناس. يصدأ، من كنا نظنه ذهباً.

أقيمت مراسم زفاف، تليق بفهد ابن حسام. تحدث الجميع عنها.. وتحققت أمنية حبيبة وسهى وسافر فهد وسهى، إلى جزر المالديف لقضاء شهر العسل. تخلصت ثريا، من الأشياء التي تذكرها بفهد، كل الهدايا.. سوار الذهب باعته، وتبرعت بقيمته للمرضى في العيادة. أشعلت النار، ورمت فيها بعض الرسائل، والقصاصات وغيرها.. حملت "طوق الياسمين" بين يديها، واحتضنته، ذرفت عيونها، دموعها، امتزجت بدموع الياسمين، وسمعت همسها:

ـ أيا نار، كوني بردا على زهرات الياسمين.

أطفأت دموع الياسمين اللهب، وعانق عبقها، سديم السماء، وقص لها، قصة حب، لم تكتمل..

لم يبق لثريا، ما يذكرها بفهد، إلا تلك الذكريات، التي تستيقظ في دجى الليل، تأخذها إلى مرافئ الشوق والحنين، فتغفو على كتف الأنين، وبين الفينة والأخرى

توقظهـا أمواج الخيبة.. تلك الدمعة، التي تسـترق من عينيها، تحكـي لوسـادتها قصتها كل ليلة.. تـروي لها، قصة نجمة، شـاردة، ضاعت خلف الغيم.. تحكـي لها، عن زهـرة البنفسج الحزينة، التي سرق منها بهاؤها، ورقتها..

(4)

سمر

ظهر اهتمام الطبيب سامر بثريا جليّا ، صار يخاف عليها من كل شيء.. يسترق النظر إليها بين الحين والأخر.. لاحظت هدى ذلـك الاهتمام، فزادت غيرتها ، وبغضها لثريا صارت تضايقها وتجرحها بالكلام.. كان سامر فطناً لتصرفات هدى

ـ هدى.... تعالي.. (قال سامر)

دخلت هدى غرفة الطبيب سامر

سامر غاضبا :

ـ أغلقي الباب.

أغلقت هدى الباب، ووقفت قلقة الطبيب سـامر وقد وقف قبالتها :

ـ متى ستتوقفين عن معاملتك السيئة لثريا؟

هدى بتوتر:

ـ هل اشتكت مني؟

ـ لا ، أنا أراك وأرى تضايقها دون أن تتكلم.

هدى مغتاظة وقد ضربت بيدها على المنضدة:

ـ أعرف أنك تحبها.

زعق سامر:

ـ الزمي حدك ولا تتحدثي في خصوصياتي

هدى وقد احمّر وجهها:

ـ حسناً سأترك العيادة لك ولها.

سامر بصوت هادئ:

ـ خيراً تفعلين.

خرجت هدى غاضبة. أقبلت ثريا مبتسمة:

ـ هدى انظري.. ماذا جلبت من البقالة.

زجرتها هدى قائلة:

ـ لقد خلا لك الجو.

لم تفهم ثريا ماذا قصدت هدى لكن تعابير وجهها ونبرتها أحزنتهـا.. فـي اليوم الثانـي لاحظت ثريا غياب هدى فسـألت عنها الطبيب فأخبرها أنها استقالت. شدهت ثريا:

ـ ولمَ؟

ـ على الرغم أني أعرفها حق المعرفة، لم تتغير أبداً أنانية ولا تحب إلا نفسها تفرض نفسها على الجميع

ردت ثريا بصوت خجول:

ـ هي مهتمة بك.

ـ أنا لا أريدها.

ـ لا تريدها بعد قصة حبك معها!؟

قطب حاجبيه:

ـ أي قصة!؟

ـ قالت لي ذات مرة أن بينكما قصة حب.

ضحك سامر ثم قال:

ـ تختلق قصصاً من خيالها.. أكثر من مرة أبيِّنُ لها بصريح العبارة أن قلبي مغلقة أبوابه.. فقد اكتفيت بقصة حبٍ أخذت مني كل شيء.

ـ هل انتهت بخذلان..؟!

تنهد سامر ثم قال:

ما أقسى حباً ينتهي بخذلان!! تعرفين الخذلان لا يأتي إلا ممن أحببناهم أكثر مما ينبغي

هزت ثريا رأسها قائلة:

ـ صحيح..

جلس قبالتها وردد بصوت حزين:

ـ مـات أبـي وعمـري عشـر سـنوات وترعرعـت فـي بيت جـدي والد أبي، كان عمي من يشـرف علـى تربيتي.. لجدي ولـدان همـا أبـي عبـدالله وعمـي عبـد الرحمـن.. تـرك لهما محـلات تجارية، وأموالاً.. أبي الأصغر عاش مع عمي في بيت واحـد يتكون مـن طابقين نحن في الطابـق الثاني وعمي في الطابـق الأول.. لعمـي ثلاثـة أولاد وبنت.. أكبرهـم أمجد في عمـري وسـمر تصغرني بعامين، وأسـعد، وأحمـد.. مات أبي بحـادث مـروري وتكفلـت أمـي بتربيتي كنا أنـا وأمجد في صـفٍ واحد مـن الابتدائية إلـى الثانوية نتنافس أنـا وهو على المركـز الأول مرة هـو ومرة أنا.. تخرجنا من الثانوية، وطلب أمجـد مـن والده أن يدرس خارج البلـد، ففرح ووافق. ضممت صوتي لصوته.. رفض عمي سفري، وتحجج أنه يريدني أزاول العمـل معـه وأحفظ مال والدي. رفضت ذلـك وطلبت منه مالاً لكـي أسـافر، وحين أصرَّ على الرفض قلت لـه إذاً أريد مال أبـي.. جُـنَّ جنون عمي صرخ: "لا مال لك عنـدي". وطردني من مكتبـه حدثتُ أمي فحاولـت تهدئتي وعاتبتـي على التطاول علـى عمي.. لكنني حزنت مـن كلامه، وحبه لولده، وظلمه لـي.. حدثت خالـي بالأمر فغضب، وذهب إلـى عمي.. كبرت المشـكلة، فاضطر خالي أن يوصلهـا إلى المحكمة كونه أنكـر مال أبي. بعد شـهور من المحاكمـة فصلت القضية، وحكم لي بمال أبي كان نصيبي النصف في كل شيء.. أما

المنزل فقد كان باسمه.. فقد قام بإجراءات التمليك دون علم أحد.. طردني أنا ، وأمي من منزل جدي الذي تربى فيه أبي وترعرعت فيه. غادرته دون وداع لم يودعني أحد إلا سمر التي أحرقت دموعها قلبي.. سمر تلك الفتاة قصيرة القوام، دعجاء العينين، بيضاء البشرة ابتسامتها تنبع من طيبة قلبها.. تعلقت بي، وتعلقت بها لا تغيب عني لحظة ، نجلس أنا وهي في حديقة منزلنا الجميل، وأقطف لها كل يوم وردة وأهمس لها قائلا: "كيف يُقطف الورد للورد" فتحمّر وجنتاها خجلا.. قالت لي ذات مرة: "شمسي تشرق من عينيك.. إن غبت غاب صباحي الجميل. نجمة أنا ، وأنت سمائي".. كان الجميع يعرف حبي لها حتى أمي، وعمي يعرف ذلك. وبعد خروجي من المنزل مرضت سمر.. وكنت أسأل صديقتها وفاء وأعرف أخبارها منها فتوصل إليها رسائلي.

مرت سنة على ذلك الحال لا أستطيع رؤيتها.. أشغلت نفسي بدراستي.. وفي يوم من الأيام جرني الشوق إليها جرا ، ذهبت إلى وفاء، وحين أخبَرتها أني أريد أن أراها.. لا أستطيع أن أتحمل أكثر من ذلك. وجدت عند وفاء أخبارا عن سمر مزقت نياط قلبي.. تزوجت سمر من ابن تاجر صديق عمي لم ترضَ به لكن تحت إصرار عمي وافقت. ويوم زفافها بكت أمام الجميع.. شعرت بشيء يختنق في جوانحي كطير ينتفض

يصـارع حتفه. بكيت يومها حتـى تقرحت مقلتي فقد ضاعت منـي سـمر، ولا حيلة في يدي.. فقد حرمنـي منها عمي كما حرمنـي من بيـت جـدي.. سـافرت وأكملت دراسـتي، وبعد سـنوات عـدت إلى أمـي، وفتحت عيـادة الأمل واشـترت أمي منزلا، بالقرب من العيادة في هذا الحي حاولت نسـيان سـمر لكـن قلبي أبى.. بعدها أغلقت أبواب قلبي ودفنت مشـاعري وأحاسيسـي.. ماتت كل النساء في عيني بعد سمر.. كرست جـل اهتمامـي على العيـادة والمرضـى. فجـأة ودون مقدمات "نبـض قلبي" لإحداهن وفتحت أبوابه على مصراعيها.. وانهمر غيـث الحـب وعادت الروح إلى مشـاعري يوماً بعـد يوم يزداد تعلقـي بها؛ إنها نـور أضاء زوايا قلبـي المعتمة ولاحظت هدى ذلك فزاد جنونها..

فهمت ثريا تلميحات الطبيب سامر، فردت ببرود:

ـ ربما من نبض لها قلبك قد مات نبض قلبها.. فقد اكتفت مـن الحب وجعاً وألماً وخيبةً.. هدى تحبك فاخترها هي فربما سعادتك معها.. ثم انصرفت.

حار سامر من ردها وانتابه القلق.. عزم أن يحدث العم صالح ويقطع الشك باليقين.. فاتصل به وأخبره أنه يريد مقابلته.

التقـى صالح بسـامر فـي المتجر بعـد أن تجاذبـا أطراف الحديث، أخبر سامر صالح عن شعوره تجاه ثريا.. تعرق جبين

صالح، توتر ورد مترجيا:

ـ أرجوك دع ثريا في حالها.

رد سامر بقلق:

ـ خيراً يا عم؟

أردف صالح بنبرة بالكاد تسمع:

ـ لا أريدها أن تتعرض لصدمة أخرى.. يكفي ما حدث لها. وبعد إصرار سامر، وتوسله اليه.

رد صالح بحزن:

ـ اغتال قلبها بدم بارد.

فرد عليه سامر:

ـ تقصد فهد..

ـ تلك قصة انتهت ومر عليها سنون.

لم يدر صالح بما يتحجج، ورأى سامر الحيرة في ملامحه رد سامر:

ـ ياعم قل أنك لا تريدني، لا مشكلة في الرفض.

أردف صالح:

ـ معاذ الله ومن يرفضك وأنت الطبيب سامر لكن يا بني...

قاطعه سامر:

ـ لكن ماذا؟ قل يا عم، اسمعك.

حنا صالح رأسه ثم قال:

ـ قلت لك أن ثريا ليست ابنتي أنا من ربيتها.

ـ أعرف ذلك، وأنا أريدها.

رد صالح بأسى:

ـ لكنها ليس لها أب ولا أم.

سامر وقد اتسعت حدقتا عينيه:

ـ لم أفهم!

ـ يعني أن ثريا...

ثم لمعت الدموع في عينيه.. كان سامر جالسا فوقف:

ـ ماذا يا عم؟ أكمل؟

صالح بصوت متهدج:

ـ ثريا، يا بني لقيطة!

كأن برقا لمع وخطف بصره وسمعه

استدار حول نفسه يمسح رأسه ووجهه بيده اليمنى واتكأ على كف يده اليسرى فوق المنضدة.

أردف صالح وهو يتأمله بألم:

ـ نعم، كما قلت لك وقد عرفت كل شيء عنها. لم يتخلَ عنها فهد الذي أحبته بكل جوارحها، إلا لهذا السبب..

انصرف سامر دون أن ينبس بحرف.. عاد سامر إلى المنزل

أم سامر مبتسمة:

ـ أعد لك العشاء.

ـ لا أريد يا أمي.

جلس على السرير بجوارها ثم وضع رأسه في حضنها انهمر الدمع من مقلتيه شعرت بحرارة دموعه نظرت إليه!

أم سامر وهي تتحسس وجه:

ـ تبكي..!!

تنهد سامر بعمق ثم رد:

ـ نعم يا أمي

ـ وهل يبكي الرجال؟

ـ نعم يا أماه.. حينما تتألم قلوبهم.. تبكي عيونهم

ردت بقلق:

ـ ما بك يا بني؟ تحدث أسمعك بقلبي.

جلس وهو يكفكف دموعه ثم قال:

ـ حينما نحب بعمق يكون الجرح أعمق.. هكذا كان

حبي لسـمر، داريته سـنينا، حتى برئت منـه، كأن لم يخلق من النسـاء في الأرض إلا سـمر، كان في صدري بوح ينفض جناحيـه ليطيـر لكنه حبيـس صمتي.. تمنيت لـو أني أكتب الشـعر لأطلق ذلك البوح ترانيم، وقصائد.. كنت أقرأ لقيس مجنـون ليلـى كان شـعره يختلـج أعماقـي يحاكينـي.. فأنا مثله شـربت مـن الكأس نفسـه أختم أبياته بدموع تتسـاقط من عيني كالمطر.. مرت الأيام والسـنون وتناسـيت ثم نسيت وهـا هـي الأيام تبلورني من جديد وتلقينـي في جب الحب مرة أخرى.. إحداهن فتحت قلبي، يا أماه.

تهلل وجه أمه وزغردت:

ـ كـم انتظـرت هـذه اللحظة؟ وكم دعـوت الله أن يأتي بهـا.. خشـيت أن أموت ولـم أرَ أحفادك، يا بنـي. من هي؟ من أين؟ سأذهب غدا، وأخطبها لك

وبصوت حزين رد سامر:

ـ ليـت يـا أمـاه، الأمر ليس بهذه السـهولة، فهناك شـيء أربكني، حائر أنا، يا أماه.

أمسكت أم سامر بكتف ولدها ثم قالت:

ـ لم أفهم شيئا.. تحبها ومحتار! هل الفتاة تحبك؟

ـ لـم تفصح لي عن مشـاعرها، تعرضـت لصدمة عصبية كادت تهلكها لولا لطف الله.

أم سامر وقد اتسعت حدقتا عينيها :

ـ ما السبب في ذلك؟

ـ السبب نفسه الذي جعلني احتار، أحبها لكن، هل سترضين بها؟

قاطعته أمه:

ـ هل هي مريضة؟

صمت سامر برهة ثم رد بعد ذلك وقد أشاح بوجهه عن أمه:

ـ لا.. بل هي لقيطة.. قررت أن أتقدم إليها خاطبا، فصدمت بما سمعت.

صمتت وكأن سامرا عرف جوابها.. احتضنت وجه ولدها بكفيها ثم قالت:

ـ ليس لها ذنب ولا تحمل خطيئة من ارتكب الخطيئة بحقها ما دمت تعرفها وتعرف أخلاقها تقدم لخطبتها "فلا تزر وازرة وزر أخرى".

انكب سامر يقبل قدمي أمه ويبكي فاحتضنته وهي تدعو له.. طلب منها أن تذهب وتتعرف عليها وبعد ذلك سيطلبها من أبيها. ذهبت أم سامر فاستقبلتها أم أحمد ورحبت بها. دخلت ثريا ثم سلمت على أم سامر ورحبت بها، انبلجت أسارير وجه أم سامر ثم قالت:

ـ سبحانك ربي! تبارك الخالق! حماك الله يابنيتي..

تبسمت ثريا ابتسامة باهتة ثم ردت:

ـ سلمت يا خالة.

على الرغم من ذلك الجمال الذي أبهرها إلا أنها رأت حزنا يحجبـه.. رأت زهرة بنفسـج تحتضن حزنها بصمت أسـتأذنت ثريـا بالانصراف.. جلسـت أم سـامر، وأم أحمـد تحدثت عن رغبتها، ورغبة ابنها سـامر في خطبة ثريا استبشرت أم أحمد بما سمعت وأخبرتها أنها ستحدث صالح ثم ترد لهم الخبر

حين سمع صالح الخبر تضايق، وتوتر خشي أن تسمع ثريا فتمرض.. اتصل بسـامر، فأخبره سامر أنه يريدها ولن يلتفت للماضـي مهمـا كان، وأن والدتـه موافقة وقد رأتهـا بعينها.. فـرح صالح لكنـه كان على يقين أن ثريا سـترفضه.. وفعلا رفضت حينما أخبرها أن الطبيب سامر يريد خطبتها.. كانت متيقنـة لما يدور حولها.. فما كان من صالح إلا أن ترك الأمر لسـامر ليقنعها بعد أيام وقبل مغادرتها للعيادة.. سـامر بصوت هادئ:

ـ هل تسمحين لي بالتحدث معك بعض الوقت؟

ردت ثريا:

ـ نعم..

جلس قبالتها في أحد مقاعد العيادة.. سامر وهو يحدق بها:

ـ هل تشعرين أن هناك شخص يحبكِ؟ يفكر فيكِ، يهتم بكِ

ردت ثريا بنبرة حزينة:

ـ كأنك تقدم الورد لمن فقد حاسة الشم وتطلب منه أن يشم عبقه.

هز رأسه وفهم قصدها أردف:

ـ أليس للورد جمالا آسرا نراه بأعيننا حتى وإن لم نستطع شم عبقه.. ثريا.. أعرف أنكِ تشعرين بحبي لك وتعرفين جيداً أنني صادق في ما أقول.. لكنكِ تتجاهلين ذلك وتجعلينني في حيرة من أمري.. هل تبادلينني نفس الشعور أم أن حبي لكِ من طرف واحد..

ردت والعبرة تخنقها:

ـ قبل أن تتحدث عن حبك لي، تريث اسأل عني.. فأنت لم تعرفني جيدا وأثق أنك ستترك هذا الحب الذي تتحدث عنه حينما تعرف حقيقتي!!

رد بهدوء:

ـ عرفت عنكِ كل شيء.

زعقت دون أن تملك نفسها :

ـ هل عرفت أني لقيطة!!

رد وهو مبتسم:

ـ نعم..

أردفت وهي تجهش بالبكاء:

ـ هل ترضى أن تتزوج لقيطة وأنت الطبيب سامر.

لمعت الدموع في عينيه ثم قال:

ـ ثريا أرجوكُ، دعكِ من هذا الكلام.. لا تحملي نفسكِ خطأ لم تقترفيه هذا قدركِ ارضي به مثلما أنتِ قدري الذي ارتضيته.

انهالت دموعها بلا هوادة، وانتحبت.. وقف سامر مكتوف الأيدي.. كان يتمنى أن يضمها في حضنه يهدأ من روعها.. يسمعها نبضات قلبه ويهمس لها :

ـ هنا وطنكِ..

كان يتمنى أن يمسح بأنامله دموعها التي أحرقت وجنتيها المتوردتين اقترب منها وانساحت الكلمات بطيئة على شفتيه.. اغرورقت عيناه بالدمع واختنق بعبرته اقترب منها دون أن يلمسها :

ـ أرجـوكِ لا تبكـي لا أحتمـل أن أرى دمعة مـن دموعك. سـأكون لكِ الأب والأخ، والأم والأهل.. سـأكون لكِ العضد الذي تعتمديـن عليها.. والأمل الذي فقدته وتبحثين عنه!! أنتِ نجمتي وأنا سـماؤك.. سـكنت فـي نياط قلبـي وتدفق حبك فـي أوردتـي.. أنت مشـكاة نورٍ أضـاءت غياهب أيامـي. ثريا قـد نالنـا مـن التعب ما يكفـيٍ وآن لنا أن نرمـي الماضي في جب النسـيان.. دعينا ندرك ما تبقى من أعمارنا.. ونملأ أيامنا سعادة وفرحا.

مسحت دموعها ، وعيناه غارقة في تقاسيم وجهها..

ـ ثريا كلي لك.... لا تخافي.. لن أسمح لدمعة أن تنزل من عينيكِ بعد اليوم أبدا.

أشرقت ابتسـامة على محياها.. ورفرفت على عتبة ثغرها.. هبت نسـائم الفرح، وتبسـم الغيم وأمطـر، جرت جداول الود وتراقصـت زهـرات الفـل وفـاح عبقهـا وولـت سـنوات القهر العجاف.

(5)

مجاهد

تمت خطوبة ثريا وسامر، ثم عقد قرانهما بعد فترة وجيزة ولكـن فرحتهما لـم تكتمل، فقـد تفجر الوضـع في عدن؛ دقـت طبول الحرب بعد سـقوط العاصمة صنعاء وإعلان عدن عاصمـة مؤقتة.. زحفت قوات الانقلاب التي جمعت حشـودها الكبيرة وأسـقطت الحكومة، ثم اتجهـت نحو عدن بعد أن سقطت قاعدة العند العسكرية في لحج..

بدأت الاشتباكات من منطقة جولة الدائرة "جولة الكـرة" فـي حي اللحوم؛ ودارت رحى الحرب في أحياء دار سـعد التي يتفرع منها حي البسـاتين والشـارع الرئيسي الواصل بين عدن وتعـز.. احتدمـت المعـارك هناك دخلـت من الجهة الشـمالية لعـدن من جهة لحج.. ومن الجهة الشـرقية تسـللت القوات عن طريق ساحل أبين عبورا بأبين، ودخلت كريتر وخور مكسر وبقيـة مناطق عـدن حيث اسـتخدم قوات الانقلاب الأسـلحة الثقيلة وبدأت تقصف بها الأحياء السكنية، ارتفعت أصوات المنادين من المساجد:

ـ "حي على الجهاد حي على الجهاد"..

هـرع مجاهـد إلى متجر صالـح، وتحدث مـع أحمد ، فقد عزما على الانضمام إلى المقاومة الشعبية للدفاع عن مدينتهم وحيهم.. لم يمنع صالح أحمد من الخروج فقد رأى فيه الغيرة ، والشـجاعة لحمايـة مدينتـه وأهله بعكس أبـي مجاهد الذي حـاول أن يمنع ابنـه مجاهد.. وبشـدة أقنعه مجاهـد بالخروج فـذرف دموعـه ، وهو ينظـر إليه. تجمع شـباب الحـي وبدأوا يصدون القوات الداخلة بكل قوة البعض من المدافعين كان يمسك البندقية لأول مرة ولا يجيد حملها ولا استخدامها إلا أن تلك الشجاعة دفعتهم لحمل البنادق كأنهم قد ألفوها سنيناً. كان مجاهـد ، وأحمـد من هؤلاء الشـباب اسـتلما بندقيتين حيـن وزع عليهـم السـلاح، وكان بصحبتهـم عسـكري في الجيـش عكف على تعليمهم وتمريسـهم علـى التعامل معها ، ومـا هـي إلا أيام قلائل حتى أصبحـوا متمكنين منها. ودارت معارك شرسة في جولة السفينة ، واشتد الخناق على المقاومة في أحياء دار سـعد. اعتلى القناصة أبنيـة الفنادق العالية التي تطـل على الخط الرئيسـي.. خط عدن تعز.. (شـارع الشـهيدة فيروز) إلى جولة السفينة. وبدأت معركة أطلق عليها "عاصفة الحزم" تحلق الطائرات على مدار اليوم وبارتفاعات منخفضة؛ ترسل صواريخها على الأبنية التي استخدمتها قوات الانقلاب

كمخازن للأسلحة.

بـدأ الشـهداء يتسـاقطون الواحـد تلـو الآخـر، أمطـرت الأحياء بقذائف الهاون، والصواريخ تنهال على المنازل فيروح ضحيتها العشـرات. نزح بعض السـكان إلـى مناطق لم تصل الحـرب إليهـا، مثـل المنصـورة والبريقة، والبعـض منهم آثر البقـاء فـي البيوت مخاطريـن بحياتهـم ولكنهـم لا يطيقون الفـرار بعيـدا. فـي الليل لا ينـام أحد فأصـوات الرصاص من كل اتجـاه.. وأصوات الغـارات تبدأ قبيل الفجـر تحول الحي إلـى أشـباح تدور فيـه حرب شـوارع ضارية، تختلـط أصوات الغـارات بأصـوات بـكاء الأطفال والنسـاء واسـتغاثتهم. من حي اللحوم إلى حي البسـاتين إلى منطقة السـفينة، المعارك تتأجـج وتبدو المدينة كالبركان يتطاير الشـرر من فوهته.. عائلـة صالح وأبو مجاهد غادرتا الحي على عجل، وانتهى بهم الأمر نازحين في مدينة المنصورة. كان صالح يرافق ثريا إلى عيادة الأمل القريبة من المكان الذي نزح إليه، فتحت العيادة علـى مصراعيها لإسـعاف الجرحى.. كان الطبيب سـامر هو مـن يشـرف على اسـتقبالهم، وتقديم المسـاعدة لهـم وإنقاذ حياتهـم. تجمع بعـض الممرضين المتطوعيـن فانضموا لثريا وسامر في كل يوم يستقبلون عشرات الحالات من المصابين معظمهم من الأطفال والنساء، جراء القصف العشوائي ويصل

الجرحى بالعشـرات، والذين هم في حالة خطيرة يتم تحويلهم إلى مستشفى آخر.

لم يستطع أحمد ولا مجاهد العودة إلى الحي فقد كانت كل الشوارع مغلقة.. بعد يوم طويل من الاشتباكات دخل أحمد ومجاهد لأخذ قسط من الراحة، وسلما موقعهما لبعض الشباب.

في منتصف الليل شنّ هجوم مكثف على موقعهم، قتل من هم في المقدمة من الشباب، وانطلقت حناجر البقية تتعالى بالهتاف على الجهاد. هرع أحمد، ومجاهد إلى بندقيتيهما.. وتوجها نحو الشباب، ودارت اشتباكات عنيفة. بزغ الفجر، وخرج الشباب يتفقدون مداخل المكان كان في مقدمتهم مجاهد ومن على أسطح إحدى البنايات انطلقت رصاصات قناصة لتردي ثلاثة شبان قتلى. التف الشباب حولهم والقائد يصرخ:

ـ ابتعدوا.. انتبهوا.. قناصة...

كان من بينهم مجاهد اخترقت رصاصة صدره. عادت الاشتباكات مع القناصة.. أحمد يصرخ:

ـ اسعفوهم.. أنقذوهم...

زحفوا نحوهم؛ فارق الاثنان الحياة وبقي الآخر ينزف.. صرخ أحدهم مجاهد لم يمت مازال ينزف.. ركض أحمد نحوه، والقائد يصرخ:

ـ انتبه القناصة مازالوا فوق الفنادق..

وصـل أحمـد إلى مجاهد ، وحمله على ظهـره و بدأ يزحف به.

ـ لِمَ خاطرت بحياتك يا صديقي؟ (قال مجاهد)

ـ اتركني ستموت. (رد بصوت واهن)

بادره أحمد وقد غطت دماء مجاهد ظهره:

ـ سنموت معاً أو نحيا معا.

مجاهد وهو يشهق:

ـ لا تدعوهـم يدخلون.. كونوا بـركان عدن الذي يقذف حممـه ليحرقهـم، قاومـوا مـن أجـل دار سـعد من أجـل خور مكسـر، وكريتـر من أجل عـدن مدينة السـلام.. أخبروهم أنكم شـباب تعشقون الموت في سـبيل الدفاع عن الكرامة والعـزة. المـوت والخـزي لمـن باعـوا عـدن وقـد أطعمتهـم، وأحسنت إليهم.. سيدفعون الثمن غالياً.

بدأت شهقاته تزداد قوة. أحمد وهو يلهث من شدة التعب:

ـ سنحتفل بالنصر وأنت معنا.. تماسك يا صديقي.

انهمـر الرصـاص كوابـل مـن المطـر وبـدأت الأصـوات تتعالـى، والتكبيـرات تتأجج.. فتح أحمد عينيـه وإذا به على السرير في المستشفى أصيب في رجله اليمنى تذكر صديقه

مجاهد.. فصرخ:

ـ أين مجاهد؟

وكانت الصدمة أن مجاهد فارق الحياة وهو على ظهر أحمد، لقد سقطا معا فأصيب أحمد.. و نجا من الموت بأعجوبة. لم يصدق صالح أن أحمد مصاب بل ظن أنه قتل، حتى رآه.. لقد خاطر بحياته حتى وصل المشفى.. وصل خبر استشهاد مجاهد، فبكاه حي البساتين ودار سعد كلها.. حمل على الأكتاف وأدخل إلى والده فعلا صراخه وأغمي عليه. كان خبر مقتل مجاهد صدمة قوية على ثريا، كان شاباً في مقتبل العمر خلوقا بشوشا.. تذكرت ملامحه وهو يحدثها عن حبه لها، تذكرت ابتسامته وهدوءه.. جده واجتهاده.. تلك الكتب التي لا تفارقه.. كان يحلم أن يمتلك صيدلية خاصة.. يحلم أن يكمل دراسته العليا "وَما نَيلُ المَطالِبِ بِالتَمَنّي وَلَكِن تُؤخَذُ الدُنيا غِلابا". على الرغم من تفوقه. إلا أن الواقع شيء آخر.. عمل مع والده في المزرعة وبيع ما يتم حصاده.

بكت ثريا حين رأتهم يحملونه على الأكتاف والهلع والخوف يتربص بهم ربما سيدفن أحدهم في تلك اللحظة: "شهيد يشيعه شهيد يدفنه شهيد".

وري جسد مجاهد الثرى.. بعد أن سطر أروع البطولات

منذ شـهرين، كتب قصة شـجاعته بدمـه. تجمع الأهالي في بيت أبي مجاهد يواسونه ويعزونه كان صالح يقف بجوار أبي مجاهد.. يرتج جسد أبي مجاهد وهو ينتحب:

ـ ضاع مجاهد مني، يا صالح.

وتنصب دموعه كالمطر فيسنده صالح وهو يهمس بحرقة:

ـ احتسـبه عند الله، من يحمي الحي، ودار سـعد وعدن؛ إلا شبابها.

قال أبو مجاهد وشفته ترتعش وصوته يتهدج بالبكاء :

ـ كل حرب تختطف واحدا من أولادي؛ صيف 1994 قتل مهنـد أكبـر أولادي كان قائد سـرية لم أجد منـه إلا هويته ومكانا قالوا أنه قبره والبعض قال أن الكلاب نهشت لحمه هـو وزملاءه.. وفـي 11 فبراير2011م قتل ماجـد كنت انتظر عودتـه قاضيـا يعتلي المحاكـم.. ويصدح بصـوت الحق، إلا أن العدالـة سـفكت دمه لقي نحبه في جمعـة الكرامة، هو وأصدقـاؤه. وهـا أنـا أقدم لهذه الحـرب قربانا آخـر، وكأن الحروب أنا خصمها. ماتت أم مجاهد، ولم تبكِه فقد فجعت بولديهـا لم تحتمل أكثـر. قل لي ماذا أصنع يا أبا أحمد؟ وقد رحل مجاهد وتركني أتجرع مرارة الفقد.

وأخذته نوبة بكاء شديدة..

قتـل مجاهد، وقتل العشـرات مثل مجاهـد.. تلك الهامات

التي، وضعت عصابة الموت على جبينها، ودافعت عن عدن، وعن مناطقها، و شوارعها وأزقتها.. سكب الدم.. وتناثرت الأشلاء.. وهدمت الدور.. ولم يزدهم ذلك إلا إصرارا على النصر وأصبحت المدينة مدينة الأشباح تلك الفنادق التي تزين الخط الرئيسي كأنها مشاتل ورد مصفوفة أصبحت ركاما كأنها لم تكن .

بعد ثلاثة أشهر من الحرب الطاحنة بزغ النصر، ففي أواخر رمضان في ليلة السابع والعشرين من رمضان الموافق 14يوليو 2015م انتصرت عدن.. ومسحت الدماء عن جبينها فابتسمت.

كان العيد بنكهة النصر، فقد دحرت قوات العدو دون رجعة وتلألأت سماء عدن ابتهاجا بالنصر المؤزر.

(6)

عرش الورد

بعـد تلـك الشـهور العصيبـة التـي مـرت بها مدينـة عدن، وضواحيها؛ هدأت أصوات البنادق والمدافع لكن آثار الحرب تركت عدن، كحسناء أحرق وجهها..

خمـدت نار الحـرب، وتصاعـد دخانها، وفي سـماء عدن نـورس يصف جناحيـه، ويحلق على شـواطئها السـاحرة، ثم يبتعـد مفزوعـا يعانـق في السـماء الغيم.. يحكي لـه هول ما رأى من ركام.. دماء.. أشلاء.. يحكي له عن أم ثكلى تتهمر دموعها على خديها بلا هوادة على ولدها الذي ترجل باكرا.. وقد كانت تعد الأيام لتراه عريسا يزف إلى بيته الجديد الذي لم يبق على تجهيزه إلا القليل..

يحكي له.. عن طفل قتل والده، وما زال يسأل أمه.. لماذا لم يعد أبي إلى الآن؟ فتموت الكلمات على شفتيها...

وتختنق بعبرتها فتضمه إلى حضنها:

ـ أبوك حر، والأحرار يا ولدي لا يرضون بالمهانة؛ يبذلون دماءهم في سبيل العزة والكرامة.

أسـرة لم يبق منهـا إلا الأطلال.. فقد كانـت ضحايا غارة خاطئة بيوت طمرت.. شوارع مكدسة بالركام.. وهناك على سـاحل عدن الجميل الـذي هجرته النـوارس، روى الغيم ألف حكايـة وحكايـة.. حكايات عدن "ثغر اليمن الباسـم" التي أضحت حزينة، مدينة السـلام والتعايش الديني تفتح ذراعيها لـكل من قـدم إليها، يهيم بهـا، وإن غادرها تظـل عالقة في ذهنه.. تلك المدينة العريقة بعراقة معالمها الشـامخة؛ الجميلة الساحرة.. ها هي، أيها الغيم شعثاء غبراء، يسمع نحيبها على أبنائها الذين قتلوا بدم بارد.. تبا للحرب، ومن أسـعرها.. فقد اكتسـحت كل شيء، وأهلكت الحرث، والنسل ثم طفرت الدمـوع من عيني "النورس" فأبكى الغيم.. من رحم الألم يولد الأمل.. قد نتناسى الحزن حتى لا نفزع عصافير الفرح، فتبتعد عنا نلملم جراحنا، ونبتسم كفارسٍ مكلوم لكنه منتصر.

بعد عدة شـهور من الحرب عادت الحياة شـيئاً فشـيئاً إلى الشـوارع والأزقة والأحياء تنفسـت عدن الصعداء، وابتسـمت على الرغم من الأسى والفقد.

عـادت عائلة صالح إلى منزلها وفرحـوا حينما رأوا المنزل سـليماً لـم يصـب بـأذى، إلا ببعـض طلقـات الرصـاص التي كسرت زجاج نوافذ المنزل.

اكتملـت فرحتهم بشـفاء أحمد وعودته إلـى المنزل وبعد

أسـابيع حـدد موعد زفـاف ثريا وسـامر قرعت طبـول الفرح وهلت الليالي الملاح.

"حفلة الغسـل" سـبقت الزفـاف بيومين.. لبسـت ثريا ثوبها الأخضـر تزينـه خيوط ذهبية. أطـواق الفـل المصفوفة غطت نصف شـعرها وانسـدلت إلى كتفيها.. عقد مـن الفل تتخلله زهـرات خضراء يزيـن عنقها.. طلت بكامـل حلتها كياقوتة زادها بريقها الأخضر جمالاً.

اكتظ المكان بالأهل، والأحبة وتعالت الزغاريد والترانيم وضربت الدفوف ورقصت عينا سامر حين رآها، إنها أول مرة يراها بهذا البهاء والجمال.. انبلجت أسارير وجهه، وهو يراها كزهرةٍ متفتحة في مشـاتل الفل، وابتسـامة السـعادة تزهر على شفتيها.. لقد وعدها أنه سيقيم زفافا يتحدث عنه الناس.

بدأ الاسـتعداد لموعد الزفاف جهز صالح ابنته بكل شـيء وجلب لها كل ما تحتاجه.. من حلي وحلل. بدأت مراسم الزفاف فحجز سـامر صالة أفراح فاخرة واشـترى لها فستان زفاف من أحـدث الموديـلات ووضـع بطاقـات الدعـوة أمامهـا والحقيبة وطلب منها فتحها فتحت ثريا الحقيبة فأبهرها الفستان.

ثريا وقد تهلل وجهها:

ـ مذهل!!...

سامر مبتسماً:

ـ انظري إلى بطاقات الدعوة

نظـرت ثريا إليها فتبينت منها أنهـا صالة فخمة.. وحجزها يكلـف مبلغا كبيـراً.. وضعـت البطاقة من يدهـا ، وأعادت الفسـتان إلى الحقيبة.. لاحظ سـامر تغير ملامحها ، وتلاشت أسارير الفرح من وجهها

ـ ما بكِ؟ لِمَ الحزن؟ لِمَ تشعرين بالضيق؟

ردت بنبرة حزينة :

ـ أحب البساطة.. وأبغض التفاخر والتباهي.

سامر مستغرباً :

ـ ليـس تفاخرا أنا أريد إسـعادك.. ظننت ذلك سيسـعدك ويبهجك.

ـ سـعيدة معـك وبـك.. لا بالصالة الفاخرة ، ولا بالفسـتان الغالـي الثمـن. ليس هناك أجمـل من البسـاطة والاعتدال في كل شَيء.. أنا أنتمي إلى أولئك البسطاء الذين لا يبحثون عن الأضـواء.. يتوارون ويختبئون في كهـوف القناعة.. أنتمي إلى أولئـك الذين يرتـدون معطف التواضع.. مهمـا تقلبت الفصول مـن حولهم.. أشـفق على فتـاة لا يهمها إلا أن تبهـر صديقاتها بليلة زفافها فكل شيء لابد أن يكون فاخرا حتى تصبح تلك الليلة حديثهن وشغلهن الشاغل.. ما ذنب ذلك المسكين الذي حمـل علـى عاتقه ديونـا أثقلت كاهله فسـرعان ما تتلاشـى

المحبة والسعادة بعد أيام قليلة من زفافهما..

رد وقد تلألأ وجهه فرحا:

ـ تعرفين لو طلب مني وزنك ذهبا لما ترددت عن ذلك.. درة أنـتِ لا يضاهيكِ أحد.. محظوظ أنا فيكِ، لعلها دعوات أمي، يـا ثريا اقبلـي هديتي هذه فأنتِ لم تطلبيها ليت السـعادة تباع لأشتريها لكِ..

ردت مبتسمة:

ـ حسنا قبلتها، سعادتي أنت؛ وبك اكتفيت.

ليلـة الزفاف كانـت من أجمـل الليالي.. أُطفئـت الأنوار، وبـدأت أصـوات الموسـيقى الخافتـة سـلطت الأضـواء علـى العـروس، وهـي تقـف أعلى السـلم.. سـلم الصالة الـذي زين ببتـلات منثـورة مـن الورد الجـوري الأحمر وتدلى مـن جانبيه ورد الزنبـق وزهـرات القرنفـل الملونة و تزينت طبقات السـلم بالمصابيح البيضاء التي أضافت للمكان سـحراً ورومانسية وبدأت ثريا بالنزول خطوة.. خطوة فبدت كأميرة في فستانها المنفـوش المطرز بالورود البيضاء ذو أكمام طويلة مصنوعة مـن "الدانتـل" وذيل طويل ينسـحب وراءهـا ببهـاء وكبرياء.. خصر ضيق متناسق على تفاصيل قامتها الممشوقة.. طرحتها من تحت رقبتها إلى خصرها ، تمسـك بباقة وردٍ حمراء بيدها اليمنى باقة عرسـها تسـريحة شعرها البسـيطة تزيدها فتنة..

يضفي تاج أنيق من الكرستال وضع على رأسها ألقاً لكل تلك اللوحة البديعة من الجمال.. حذاؤها كرستالي متوسط الكعب يتلألأ كنجوم السماء.. أحمر شفاه رسم على شفتيها بدقة، عكس لونه بياض ثغرها الناصع مع قليل من المكياج الذهبي المخملي الناعم ولمسة ظل خفيفة. كان سامر يتمعن في تفاصيلها البهية وهو ينتظرها أسفل السلم وحين وصلت مد يده إليها.. وقف أمامها ورسم قبلة على جبينها ثم صعدا الجسر المغطى، بالزجاج المتلألئ بالمصابيح البيضاء والذهبية.. تزينه أقواس من الورد خطوة.. خطوة

أساريرالفرح، والسرور تبرق من وجهيهما، وابتسامتهما تتلألأ كنجمتين يتسامران عند الشفق نزلا من الجسر، وصعدا عرش الورد وسلطت الأضواء عليهما عرش الورد "الكوشة" تزينت بأشكال من الورد الأنيق المميزة بينما تم وضع أشكال من الشمعدانات على جانبي عرش الورد وأعمدة الصالة اعتمد في تزيينها على أشكال من الزخارف الجميلة.

يزين اللون الأبيض والذهبي الحائط والسقف وزينت الصالة بالورود والمفارش المصنوعة من الساتان الأبيض.. تم المزج بين اللونين الأبيض، والذهبي في غطاء الطاولات والمقاعد باقات من الورد الأبيض الأنيق تزين الطاولات.

تلف الشرائط الساتان بألوان رقيقة حول المقاعد، وفي

جوانـب الصالـة وعلـى المزهريـات. بطريقة مميزة تـم تعليق أشـكال راقيـة وفخمة من ثريات الكريسـتال في السـقف. اعتلـت ثريـا عـرش الـورد وبجانبها سـامر صعدت أم سـامر تزغـرد وترقص فنهض سـامر، واحتضنها وقبلهـا احتضنتها ثريا أجلساها وسطهما فاحتضنتهما معا دخل صالح، وعائلته وحيـن صعدوا الجسـر نظـرت إليهم ثريا وتـلألأ وجهها فرحاً صعـدوا عـرش الـورد، فنهضـت إليهـم قبـل أن يصلـوا إليها عانقهـا والدهـا بحرارة والدمـوع تلمع في عينيـه. حمل أحمد عمر الصغير إليها ليقبلها فاحتضنتهما معاً.

سلم عليها محمد وهمس إليها:

ـ لا تغيبي عنا كثيراً وإلا سأترك العسل.

ـ لن أغيب عنكم فأنتم أغلى ما أملك.

عمر وهو يتأمل عرش الورد، والصالة، والحضور:

ـ ما أجمل هذا المكان! وقد زاد جمالاً بك أختي

ردت ثريا وهي تتبسم:

ـ متى يا شاعرنا تكون هنا؟

ضحك عمر ثم قال:

ـ عن قريب

همس لها أحمد مازحا:

ـ لا تقلقي، يا ثريا فالشاعر قد وجد قصيدته..

ضحك الجميع، وقفوا بجانبها ووقف صالح بجوار سامر ولف يده حول كتف سامر توسطت أم أحمد أولادها وهي تزغرد وتنثر الورد على العريسين، وأم سامر ترقص وتصفق بيديها

بدأت مراسم الزفة، وقف سامر وأمسكها بيدها وبدأا بالنزول من عرش الورد ثم الصعود على الجسر الزجاجي وبدأ الأهل، والأحباب ينثرون الفل على العريسين وعند بوابة الصالة التف حولها الجميع لتوديعها كان صالح ينظر إليها والدموع تملأ أهدابه مر أمامه شريط الذكريات، وتذكر تلك اللحظة التي كشف الغطاء عنها فرأى وجهها وهي داخل ذلك الصندوق الخشبي تمزقت نياط قلبه كمدا، وألما تحمل في تلك اللحظة أمانة تهد الجبال أرهقت عاتقه لطالما أرقه السهد.. ودفع من صحته الكثير، والكثير.

تأملها بحب، وهو يسمع صدى ضحكاتها؛ وارتسمت ابتسامة على محياه مزجت بالرضا، وتنفس بعمق ثم أخرج زفرة أزاحت ذلك الهم الجاثم على صدره.. تمتم:

ـ الحمد لله انقشعت سحب الحزن.. وولت تلك الليالي الحالكة الظلام.. انبثق النور.. وتبسم فجر الأمل، وجبر الله كسراً قد يئست أن يجبر؛ لقد أتى الله بمن يحمل عني

الأمانـة التـي قطعت عهداً على نفسـي أن أحفظها مادام قلبي ينبض، فهو والله لها أهل لقد رأيتها في أحداق عينيه.

انتبه صالح على صوت سامر

ـ ألا تودعها، يا عم..

تقدم إليها بخطواته الثقيلة لفها بذراعيه فأمسكته بكلا ذراعيها تهللت الدموع من عينيها وهي تهمس له:

ـ أدامك الله لي سنداً ونوراً وحياة.

اقترب سامر فهمس له:

ـ أغار يا عم.

فضحـك.. وضحكت ثريـا وهي تكفكـف دموعها ودع صالح سـامر وعانقه عناقا شديدا أمسك بكتفه ثم همس له وهو يشير إلى ثريا:

ـ هـا هـو "وجـه القمر" تلألأ.. عـاد بدراً مكتمـلاً حافظ عليه من الخسوف

رد سامر مبتسما:

ـ سـأكون لوجه القمر سـماءً دون منازل دون سحب، ولا غيوم تحجبه.. أعدك يا عم أن تراه بدرا في تمامه دائماً.

تمت

فهرس

الإهداء 3

شكرا 5

الفصل الأول

(1) صندوق خشبي 8

(2) غيمة 14

(3) أول نظرة..... 19

(4) قصاصات ورق..... 27

(5) الحلم الدفين 34

الفصل الثاني

(1) حب من طرف واحد ... 42

(2) أسيل..... 54

(3) عاشق حائر..... 62

(4) اعتراف..... 69

الفصل الثالث

(1) درع أمير الشعراء..... 82

(2) في العيادة..... 86

(3) حفلة 94

(4) حقيقة أم خدعة 104

الفصل الرابع

(1) رسالة 116

(2) من أنا؟..... 129

(3) بقايا قلب 137

(4) سمر..... 144

(5) مجاهد 159

(6) عرش الورد 167